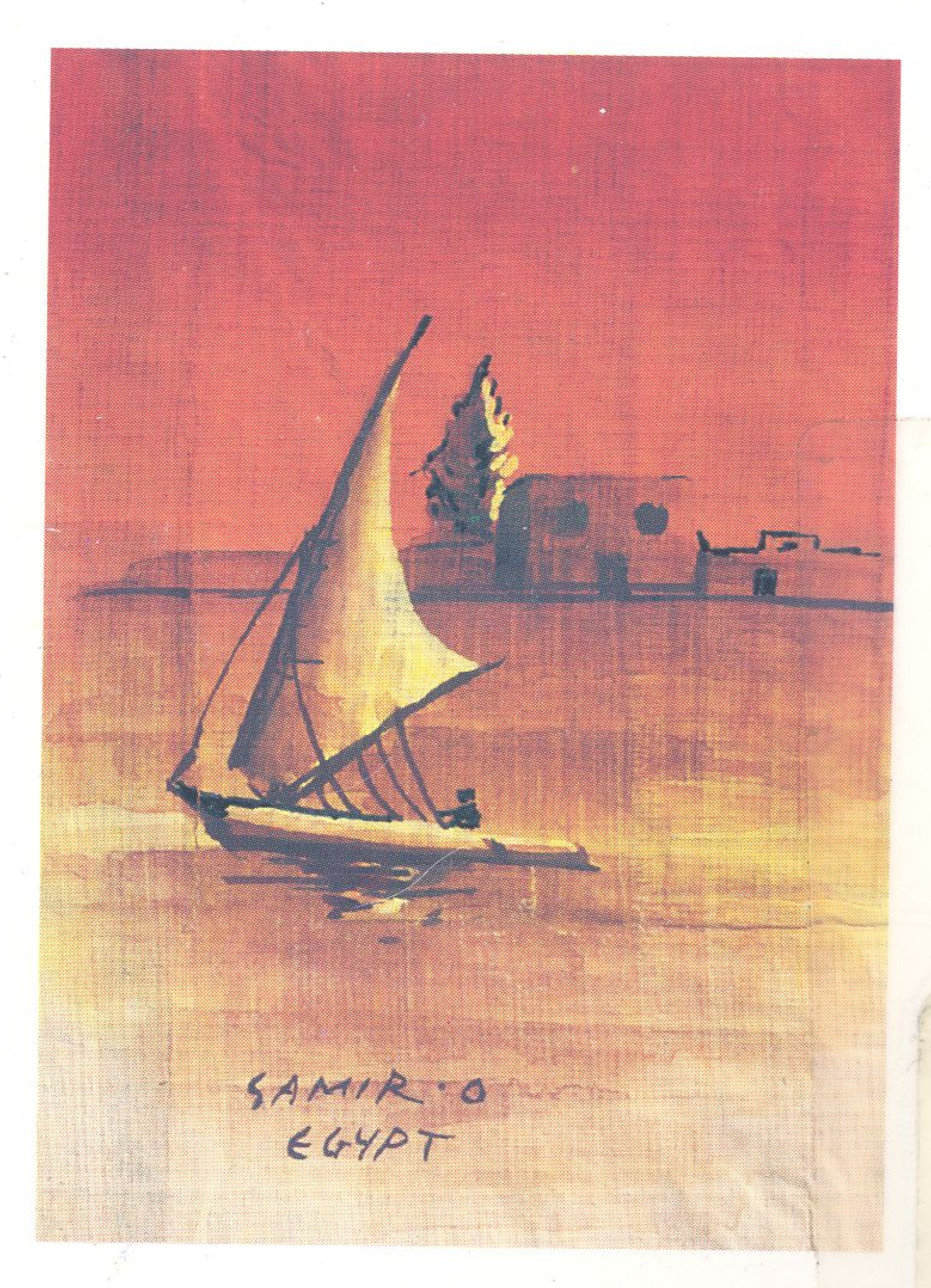
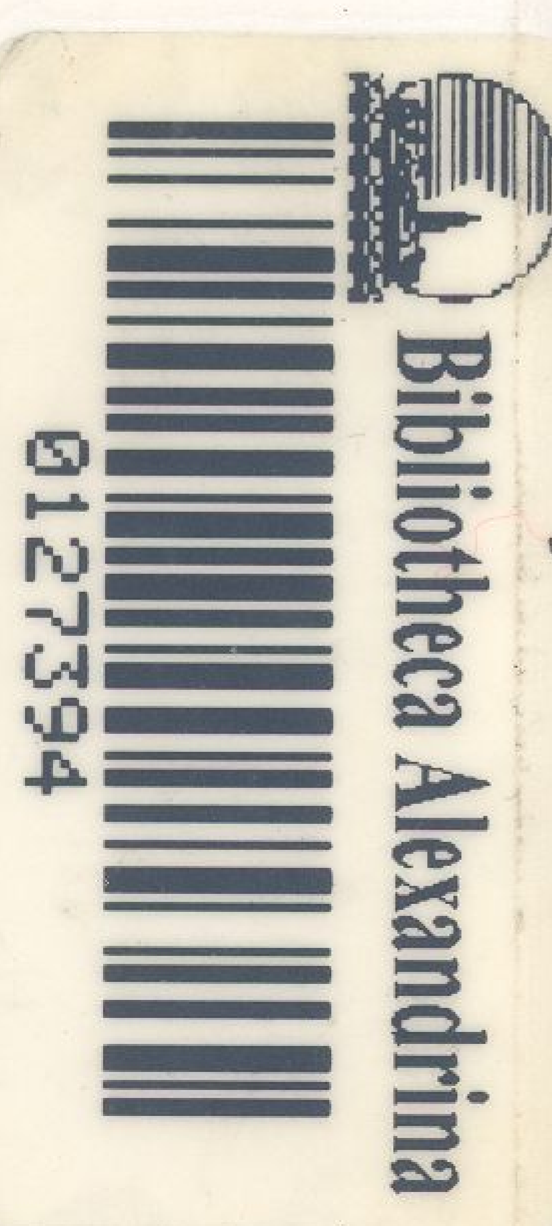
ممدوح القديري

الهروب مع الوطن



قصص قصيرة





الهروب مع الوطن

قصص قصيرة

ممدوح القديرى

الطبعة العربية الأولى : ١٩٩٩

رقم الإيداع: ٧٣٤٠/ ٩٩

الترقيم الدولى : I.S.B.N 977-291-151-5



السلسلة الأدبية

رئيس المركز

على عبد الحميد

مدير المركز

محمود عبد الحميد

المشرف العام
على السلسلة الأدبية

خيرى عبد الجواد

الجمع والصف الإلكترونى
مركز الحضارة العربية
تنفيذ : منى زهانة

٤ ش العلمين عمارات الأوقاف
ميدان الكيت كات
تليفاكس : ٣٤٤٨٣٦٨

ممدوح القديري

الهروب مع الوطن

قصص قصيرة



إهداء

إلى والدي رحمه الله ..

ووالدتي رحمها الله ..

إلى كل إخوتي وأهلي في الوطن «فلسطين».

إلى كل الشرفاء الذين ناضلوا من أجل نصرة الحق

في زمن حق القوة.

ممدوح القديري

شعرت بقشعريرة حين ترامت حولي منادي الليل ووساوسه ، وأنا مكتئب واكف العينين ، أجرّ ما تبقى من عمري نحو شقاء لا تبدو له نهاية .. يؤرقني لهيب الشوق وأنا أقبع في مكاني داخل صالة "ترانزيت" في أحد المطارات .. خلته سجناً .. رغم جدرانه اللامعة .. أسترجع بعضا من تصاريف الزمان .. كأنني أبحث عن سر الحقيقة التائه في بيداء الحياة ونفسي ضاجة بالحنين الحالم ، وشعور بفقدان أجزاء من ذاتي بعد إبعادي عن الوطن .. لكن الوطن لم يبتعد من داخلي .. أجتر أطيافه في ليلي الطويل القاسي .. إحساس بالضآلة .. تشاركني فيه همومي الراقدة بين لواطفي .. يثير الإحباط واليأس في أعماقي .. أحمل " وثيقة " تخصني .. لاأهمية لها عبر الحدود ، أوعند معابر الدخول .. تثير في نفس المسؤول فتوراً غامضاً ونفوراً صامتاً ..

طال انتظاري وأنا أرنو إلى موظف الجوازات .. يتفحصني بعينيه ، بعد أن طلب مني أن أنتظر ، بعد أن أخذ مني بطاقة رسمية كتبت فيها معلومات عني استقيتها من وثيقة السفر .

كان الوطن بعيداً – خلف الأسوار – معروف الهوية ، وأنا رغم أوراقي الرسمية ؛ مسلوب الهوية في عالم يبدو مجهولاً ، ضعيف الإرادة تحت باحورخافت الضياء. أتلفت حولي أرى الناس في حالة تَشَهّي ، يملأون بطونهم بنكهة اللحظات الشاردة في حضوري المنسي .. أنظر إليهم بفضول

خالٍ من الحذر .. ومشاعري فاترة ..

أتذكر زوجتي وأولادي الصغار - ذات مرة - كانوا معي داخل المطار نفسه .. سمحوا لهم بالدخول ، وأمروا بترحيلي ؛ بحجة أنني مازلت أرتدي راية الوطن السليب بألوانها الأربعة ووثيقة سفرٍ في يدي تذكرهم بأنني لاجئ في وقت الهزيمة .. أبنائي وزوجتي يتابعونني من خلف دموعهم ، قلوبهم حزينة ، والموظف المسؤول عن ترحيلي يطلب مني أن أسرع .. قلت :

- إلى أين؟

قال بصوت عالٍ جهير خالٍ من الرحمة :

- إلى جهنم

رددت في داخلي :

- قد تكون أكثر رحمة منك ..

مضيت إلى دربي المبهم ، قابلت ضابطاً ، توسلت إليه أن أذهب لوداع أسرتي فقد يطول البعاد . قال بلهجة آمرة بلا تردد :

- ثلاث دقائق .

نظرت إليه وكانت نظراتي كافية لأن يعرف أنني فقدت حرية الاحتجاج وليس من حقي الاختيار. اتجهت نحو أسرتي ، مازالت دموعهم - وسط حزنهم - في عيونهم ، وقد استحوذت عليهم المخاوف وانتابتهم الهواجس على مصيري ، قلت لزوجتي وعبراتي تخنقني :

- سأحاول أن أتصل بكم بعد أن أعرف أين سأكون ؟.

قالت بيأس وانكسار :

- ألايوجد أمل؟

قلت دامعاً :

- لايبدو .. اهتمي بنفسك وبالأولاد .

قبلتهم ، طعم دموعهم على شفتي ، أحسست أنني جلدت نفسي ، سالت دموعي غزيرة ، لم أعد قادراً على رؤية أي شيء ، سمعت الحارس يقول : لاحول ولاقوة إلا بالله ، يبدو أن قلبه قد رق لحالي .. وأنا ابتعد - حسير النفس - شعرت أن جسدي يسبقني - تنقله قدماي ، أما رأسي فقد كان يحوم حول أسرتي الصغيرة وأنا أستعد - مرغماً - لركوب الطائرة ..

أعود إلى حاضري ، حين أسمع اسمي كاملاً ينطق به شرطي شاب ، أقترب منه ، يطلب مني أن أحمل حقيبتي وأتبعه .. لم أتفهم في البداية حقيقة الموقف ، ولكن بعد أن وصلت بداية الممر الضيق الذي يؤدي إلى مدخل الطائرة الضخمة .. أيقنت أنني في طريقي إلى القيام بنفس طقوس حفظتها من كثرة الترحيل .. ووثيقة السفر مازالت في يدي .. لا تمنحني حرية السفر ؛ لكنها تدل على أنني أرتدي هوية الوطن بألوانها المعروفة : الأسود - الأحمر - الأخضر - الأبيض ■

آخرزمن

معايشة الألم تخفف من حدته .. رددها في نفسه أكثر من مرة وهو يستمع إلى الأخبار من جهاز مذياع صغير اشتراه من دكان يبيع الأجهزة المستعملة .. يأتيه صوت المذيع متهدجاً وهو يسرد أحداث اليوم :

اجتاحت القوات الإسرائيلية جنوب لبنان .. مازال القتال دائراً في البوسنة والهرسك .. قمة اقتصادية جديدة في الشرق الأوسط .. مأساة الفلسطينيين داخل أراضي الحكم الذاتي ، مع حصار جديد تفرضه قوات الاحتلال بعد عملية فدائية في القدس .. فوز حامد نسيم البريطاني الجنسية اليمني الأصل على الملاكم الأمريكي في الجولة السابعة .. تنتهي الأخبار ، فاصل موسيقي ، يقفل المذياع ويستغرب لماذا أعاد المذيع أخباراً قديمة؟ لماذا لم يذكر زيارة الرئيس كلينتون إلى مطار غزة ، وإعادة فتحه بقص شريط أحمر ؟ أليس اليوم هو الرابع عشر من كانون أول من السنة الثامنة والتسعين قبيل نهاية الألف الثانية لميلاد السيد المسيح ؟ هل تناسى المذيع ذلك أم أنه اعتبر ماحدث من الأمورالعادية المألوفة التي لاتحتاج إلى إذاعتها؟

يعيد تشغيل الجهاز - يأتيه نفس صوت المذيع ، يسرد نفس الأخبار التي سمعها في المرة الأولي - يتعجب - هل توقف الزمن عند ذلك ؟ أم أنها محطة تذيع الأخبار القديمة لكي لاينساها الآخرون؟ يتابع النشرة إلى نهايتها ثم يقفل المذياع .

يفكر .. يسترجع ما أذاعته تلك المحطة الوحيدة التي يبثها ذلك "الجهاز القديم" .. يبدو أنه قد فقد القدرة على متابعة المحطات الأخري . أو أن مؤشره لايهتم إلا بهذه المحطة الإذاعية ؛ لأنه قديم .. فقد حساسية الاختيار وأصابه الوهن بعد أن سرقت السنون منه قدرته على المتابعة ..

تهللت أساريره وهو يقارن نفسه بالمذياع الذي وضعه أمامه على منضدة متوسطة الحجم .. بعد أن جردته الأعوام من أحلى أيام عمره ، وقطفت من شجرته أزاهير الشباب ، وتركت له بعض الأغصان عارية من أوراقها الخضراء ؛ فشاخت براعمها بعد أن فقدت نضارتها واقتربت من السقوط ، وهي تمضي واهنة متباطئة نحو إحباط يبتلع كل أمل بمجرد أن يلتمع كفكرة في أفق الخيال .. فتسلب منه إرادته وتجبره على الخضوع كغانية تبيع المتعة بلا استمتاع بعد أن فقدت جمالها ؛ فأسرتها الحاجة ، وانساقت وراء الرذيلة تصطاد ضحيتها بلا تمييز – فيتوهم أنها له وحده وهي لاتمنحه أكثر مما عندها – هي بحكم العادة ، وهو تدفعه غريزته التي تسيطر على مشاعره إلى حد الجنون ..

هكذا كان يوزع أدوار شخوص مسرحية حياته ويقوم بكل الأدوار وهو يقف على عتبة ضياع زمانه – مهتاج الخطوة – ينأي بنفسه بعيداً عن خوائه وهو يعيش فراغه العاطفي ، وهو يمشي بلا هدف في شوارع الواقع ، مع بداية صباح يتنفس الهواء الرطب البارد بعد سكون الليل ، وهو يبتلع أسرار الناس بعد أن سهر عليها يتسمع إليها همساً منهم وهم قائمون في بيوتهم يمارسون طقوساً لاتكون إلا أمامه بعيدا عن الآخرين.

وقف واجماً أمام جدارية ضخمة لأم تحتضن وليدها وغصن من

العوسج الشائك تحت قدميها ، تخيلها حقيقة ، مد يده لكي يبعد الأشواك عن قدميها ، لكن يده اصطدمت بالجدار الصلب . هانت عليه نفسه - وهو لايستطيع تحقيق رغبة بسيطة - رغم تعوده على الاحباط داخل سجن الحياة بما فيه من ترقب واكتفاء بالقليل والانتظار مع الجموع للحظة الحرية التي قد تطول فيحصدها الموت المفاجئ ، ويغوص بها في قاع الوحدة العميق .

يشتري جريدة دون انتقاء ، يقلبها ، بعد أن جلس على مقعد رخامي تحت مظلة لانتظار الحافلات العامة على جانب الشارع ، تصدمه أخبار الحوادث فيها ، يقرأها ونفسه تأسى لما تتابعه عيناه :

أب يقتل بناته الثلاث - كبراهن في الثامنة من عمرها - ويلقيهن في النيل تخلصاً منهن ومن متاعب الحياة، ثم يسلم نفسه للشرطة ..

أب يصلب ابنه حتى تتسمم مفاصله لانقطاع الدم عنها لذنب بسيط وتقطع يداه .. يصرخ الابن الصغير بعد ذلك في نوبة نحيب أنه لن يعود إلى فعلته السابقة ويرجو أباه أن يعيد له يديه ..

امرأة تقتل ابنها الوليد من أجل عشيق يروي ظمأها الآثم بعد أن سرت الرذيلة في دمها مع ذلك العشيق الذي فقد السيطرة على حب مضاجعتها في الحرام ..

ابن يقتل والدته أثناء الصلاة ببرود رغم توسلاتها وهي تلفظ أنفاسها الأخيرة ..

وزير يتاجر بمصير شعبه من أجل مزيد من الدولارات ..

أخت عانس تقتل شقيقتها المخطوبة منذ أيام بسادية وفظاعة تقشعر لها الأبدان ..

امرأة تتزوج بأكثر من واحد وهي تنتقل بين المدن والقرى دون وازع ديني أو أخلاقي يمنعها من الارتواء المحرم ..

رجل يقتل طفلة ، ويسرق قرطها ليبيعه من أجل المخدرات ، ولخيبته يكتشف أن القرط لايساوي شيئاً لأنه ليس من الذهب ..

مُدرسة تقتل طفلة بحبسها في حمّام المدرسة بضمير ميت ..

يطوي الصفحة بعد أن أزكمته رائحة القتل بين السطور .. تصدمه مقالات غثة لكُتاب من الصف الثالث يتصدرون صفحات الجريدة عن طريق الواسطة والشللية وطرق أخرى ..

ومفاهيم مقلوبة ومفارقات عجيبة ، جعلت المناضل إرهابياً ، والمغتصب صديقاً .. يشعر بالضيق وبأن أنفاسه تتقطع ، ألقى بالصحيفة في قارعة الطريق ، وسحب نفسه ، ينظر في عيون المارة يبحث عن نظرة حنان أو رحمة تعيد إلى نفسه الطمأنينة وتجعله يشعر بالهدوء .. لكنه للأسف لم يعره أحد انتباهاً ، الكل مشغول ينظر إلى نفسه ، وحين يتعثر لايعتذر كأنهم ضلوا طريقهم ، لكنهم لايبدو عليهم القلق ؛ لقد سرقتهم اللحظة وهم يغوصون في شبق الحياة ، شعر أنه يعيش مأساة ستفقده عقله ..

أخذ يهرول نحو مقبرة المدينة.. رقد بحثا عن دفء الحنان بين الأموات .

وهناك قرب ضريح والدته ، رقد بجانبه لاهثاً ، أغمض عينيه ، وتمنى أن تنتهي حياته قربها هروباً من زمن لايرحم ■

لوعة الفراق

مازال قلبي المكدود يعزف ألحانه الحزينة وهو يئن من الألم ؛ فالعمر يقترب من الخريف ، والأوراق تذبل رغم بقاء الجذور في أرضها تتسول الحياة ، الليل يرخي ستائره القاتمة ويحجب الضياء .. تتماهى النفس مع ألوانه ، وتضعف الرؤية ، تفقد الأشياء ألوانها ويسود اللون الأسود خارج وداخل نفسي .

مع سكون الليل يزداد الاشتياق إلى عناق .. وأنا أشتاق إلى الرحيل .. في داخلي أعاصير تقصف بعواطفي .. أتلفت حولي .. لا أرى شيئاً ؛ فالسواد يلف المكان ، ولارغبة لي برؤية النور ، لأنه يذكرني بحالة الحصار التي أعيشها داخل هذه الغرفة التي عرفت كل أسراري ومعظمها أنين ، وحنين إلى لقاء لايتحقق .

أشعر أن غرفتي تشفق أحياناً على حالتي ؛ فتبدو أكثر قتامة ، وتلوذ بصمت هادئ لاينتهي .. تنتظر أن أبوح بالجديد .. تلونت جدرانها من لمسات يدي ، وأصابعي نحلت من كثرة تدوين انطباعات لم يقرأها أحد .. ستائر غرفتي ساكنة لايحركها الهواء ؛ لأن نوافذي دوماً موصودة لاتستطيع الرياح اقتحامها ، فضجرت واكتفت أن تتوقف خلفها تسترق السمع ، فلا تسمع إلا الصمت العميق .. تنقله إلى عالم مجهول يحب عذابات الغير ويبتسم لأنات الضمير .. يتسلل بعض الهواء عبر الشقوق النامية فوق الجدار المكتوي بلهيب ظهري المستكين ، المعوج قرب باب تهدلت أركانه .

طائر يئن قرب أسلاك النافذة .. يخفق قلبي .. أفتح النافذة ، وأمد يدي المعروقة ، لكن أسلاكها أعادتها إلى صدري ، وبنظرة متأسية يرنو بها خلف دموع ساخنة .. فالتاع قلبي وارتعش .. رجوته أن يطير ويرحل .. جسده النحيل العاري تحت ريش الحياة يزداد التصاقاً بحديد النافذة .. تلاقت عيناي بعينيه الدامعتين ، حينها اكتفى بأن هز رأسه لما رأى جرحي الكبير نازفاً بين الضلوع من لوعة الحبس المرير ، بدأ ينشد بصوت خفيض أغنية الموت الحزين بلا ضجيج .. يا أيها الحزن الدفين ..

حاولت الابتعاد ، توقف النشيد ورفرفت بقايا جناحيه الصغيرين ، وددت لو أجعل راحة كفي له حضناً يقيه برد النزيف . آه ما أقسي الظروف حين تفسد المعاني ما بين العقوبة والألم وما بين اليقين والشك اللعين ، تسمرت عيناه على رسم في الجهة المقابلة معلق على الجدار المشقوق ، لملمت شجاعتي وسألته عن أهله ، قهقه حتى البكاء ، شعرت بالخجل والنافذة مازالت مفتوحة بلا ستار.

قلت له :

- خمسون عاماً مضت ونحن في اغتراب ، نبتعد وتكبر المسافات . لكننا لم ننس - ذاكرتنا قوية - قد يكون ذلك لقربنا من البحر أو لأن الأسماك - طعامنا - تحتوي على الفسفور ، رغم أننا لانصطاد إلا ما تلقيه الأمواج على شواطئ الصخور بلا شباك ، رضينا بأن نأخذ مايلفظه البحر - رغم امتداده الطويل - فالحصار أكبر من أن يسمح لنا بالإبحار ، فبقينا ننتظر حتى سئمنا ، نصحونا بالذهاب إلى أطباء النفس وقراءة ما قاله فرويد ويونج وأدلر ، لكنهم لم يعرفوا أن العيون تقعرت أبصارها من كثرة البكاء

على أقارب لنا مـاتوا لكنهم لـم يُدفنوا - هكذا أشار كبيـرنا - الموت أفضل في العراء ، قـصيدة فـقدت قوافـيها بافـتراء ، نثرنا أجـسادنا المكدودة على الصخور ، والبحر مالح ، والشمس حارقـة ، لكننا بقينا نجتر أنفاسنا حبا في اللقاء ، طيور النورس جائعة وصوتهـا النائح يُطرب حراسنا ، شواهد قبور لاتعي فـهي أحـجـار وأسـمنت وطين ، نكـتب أسـمـاءنا على الشـاطئ .. يمحوها المـوج ، عيوننا المفـتوحـة لاترى .. لكن الجفون تحـس وهج الدموع السـاقطة على الخدود .. تزيلهـا نسائم البـر وتمحوها نسـائم البحـر، هكذا تعلمنا في جغرافية المناخ . الطائر الحزين ما زال واقفاً يرتعد من البرد والليل مـاض في سكونه .. يقطعـه صـوت كـروان حائر يُـغني المُلك لكْ ، لكْ ، هكذا أخـبرتني أمي حين سـمعـته وهي تحملـني في شهـرها الثاني عـشر ، وحين لفظني رحمها وكبرت بعد شهور قلت لها :

- كل النساء يحملن الجنين تسعة أشهر إلا أنت ! سنة .

قالتْ :

- هكذا شعرت حين ركبت البحر وأتجهت إلى المجهول ، هناك ياولدي تخـتلف التواريخ وتقـل الشهـور ، وتصبح الأيام سـاعـات قليلة .. حينهـا ضـحكتُ وسقطت أسناني ، فـقد بـلغت أعمـار الشيـوخ .. حكايات أمي والرحيل وركوب البحر وفقدان السبيل ها هنا يزداد الحنين .

سألتها عن والدي ..

أشارت إلى قاع البحر ، حينها عرفت أن الأسماك تقوي الذاكرة ، وبيتنا الخاوي على سفح التلال السـافرة - يختلس النظر - لكنه المسكين لايعرف جوازات السـفر ، أكوام الحطـام من حوله عصـمته من تعب الـرحيل فظل

يحلم بالأشجار وأغصان النخيل .. أمي تعيد الوصف ، ورأسي في حِجرها ويدها الدافئة فوق جبيني تتمتم بتعويذة لترقيني ؛ خوفاً من ضياع الذاكرة .. الطائر المسكين بكي وارتحل بعد سماع قصتي ، لكنني أبقيت نافذتي مفتوحة للريح في سفرها الطويل ■

جريدة البلاد السعودية سنة ١٩٩٦

حارة فلسطينية

أطل القمر في الربع الأخير من الشهر كخنجر مغولي تحيط به هالة من السحب الخفيفة ، أضعفت أضواءه الباهتة .. تململ الزمان في تلك الحارة المعتمة التي يقف فيها وهو يمسح عرق المشي المضني المتراكم على وجهه براحة يده ، وحين وقعت قطرات منه على شفتيه تذوق ملوحته المختلطة بغبار الطريق ، فزادت تعاسته وهو يجر قدميه بحثاً عن بيته القديم في هذا المكان الذي يعرفه رغم غيابه الاضطراري الطويل بعد حزيران ١٩٦٧، تملكته الحيرة وأحس أن طمحات الدهر وشدائده تتآمر عليه لتزيد من عذاباته بعد أن فقد هدأة اليقين في ضياعه الجديد فوق الأرض التي يعرفها، ويشم رائحتها التي لم تتغير، رغم كسوتها الجديدة من بنايات مختلفة عما كانت عليه وقت الرحيل القسري بعد الاحتلال ، فأنقصت تلك المساحة الخضراء المزروعة بالبرتقال والزيتون والكروم التي كانت تحيط بالمكان .. تنهد عميقا وهو يستنشق عبير الأرض .. في ثوبها الجديد ، لم يخف استياءه الذي بدا على هيئة امتعاضة تقلصت معها عضلات وجهه المكدودة بسنواته الأربعين .

الجو حار رغم غياب الشمس منذ ساعات قليلة وهو ما زال يحملق في أبواب المنازل التي بدت وكأنها تسخر منه وهي موصدة ، متمنعة ، يبخل أحدها أن يفتح مصراعيه ويحتضنه فيرى أهله ويتخلص من متاعب البحث عنهم ..

يسمع صوت حفيف ، ينتبه ، ترتسم ابتسامة أمل على وجهه لكنها تتلاشي سريعاً حين تمر أمام عينيه مجموعة من خفافيش الليل .. فيعود إلى واقعه وتتجسد أمامه صورة والدته ووالده وإخوته الصغار ، لابد أنهم كبروا فلم يعودوا ينتظرونه كسابق الأيام وهو يحمل إليهم بعض الحلوى الرخيصة التي كان يستطيع شراءها بنقوده القليلة التي كان يكسبها من عمله كمدرس ابتدائي ، تملكه شعور بالغبطة وهو يستعرض صور عائلته وقدماه تقف على أرض حيِّه القديم تُقبِّلُها ، ها هو ما زال حياً فوقها ، لكن مايقلقه أنه لم يعثر بعد على منزله الذي قضى فيه طفولته وبداية شبابه ، بلع ريقه واستحلب لسانه حين شعر بالعطش ، تمنى لو يشرب من ماء بيته ، أوحشته عذوبته وهو ينساب من الصنبور الوحيد في مطبخهم ، الذي بناه والده على عجل لكي يضم بين جدرانه بملمسها الخشن ، تلك الأواني القليلة القديمة التي كانت تستخدمها والدته في الطهي وعمل شاي الصباح، كم هي جميلة ذكريات الماضي حين تتأجج مع الرجوع فوق المكان نفسه الذي أحبه وتمنى أن يعيش فيه .

توقف لبرهة ، خالجه إحساس في داخله ، تماوج مابين الخوف والترقب، ثُم تابع سيره في نفس الطريق وهو يحدث نفسه :

- جميل أن يعود المرء إلى أهله ، لكن ليس جميلاً أن يتغير شكل المكان بهذه الصورة فتتوه معالمه القديمة التي يعرفها ، لابد أنه ضل الطريق ، لكن المدرسة الابتدائية التي كان يعمل فيها قائمة وهي لاتبعد كثيراً عن منزله ، ها هي واضحة المعالم ، رغم ماحولها من مبان لم تكن موجودة . استدار والتفت جهة المدرسة ، المباني متشابهة تقريباً تحت ضوء القمر الواهن ،

لكنها من طراز حديث مختلف عن بيته المبني من حجارة الجبال المجاورة .. خطر بباله أن يطرق باباً من تلك الأبواب الواقفة أمامه ، خاف أن يزعج الناس داخل بيوتهم في هذا الوقت المتأخر من الليل ، ألحّ عليه هذا الخاطر وهو يشعر بالتعب بجسده النحيل الصغير .. نظارته الطبية تضغط على أعلي أنفه ، فبدا أكبر من حجمه العاذى ، مما قلل من وسامته ، وزاد من نسبة دمامته الواضحة بشفتيه الرقيقتين وأسنانه المدببة البارزة . توقف أمام أحد الأبواب ، بعد أن أقنع نفسه أن مواصلة السير عبث لا طائل منه طالما أنه لم يستدل على بيته ، وعاوده شعور قديم لازمه طيلة سنوات عمره بأنه ما زال ذلك الطفل الضعيف الذي يحتاج إلى من يرشده حتى وهو بعيد عن أهله وأنه يحتاج إلى أحضان أمه ورعاية أبيه ، مد يده وقرع الباب ، حبس أنفاسه حين فُتح الباب بسرعة وأطلّ منه رجل كبير السن في يده بطارية ، وقال بصوت طحنته السنون :

- ماذا تريد ؟ هل أصبت بالجنون .. وأنت تدق أبواب الناس في هذا الوقت ؟

- معذرة .. أنا إبراهيم .. ابن أبو إبراهيم البقّال .

قالها وهو يرتجف من المفاجأة ..

- هل أنت إبراهيم حقا .

قالها الرجل باستغراب ودهشة .

- نعم .. هل تعرف أين منزلنا ؟

لم يجب الرجل على سؤاله وبعد أن تفحص وجه إبراهيم على ضوء البطارية قال :

- يبدو عليك الإرهاق . ولكن هل أنت حقاً إبراهيم .. لم نسمع عنك كثيراً بعد نزوحك .. أين كنت؟

أجاب إبراهيم بلهجة المهزوم :

- في إحدى البلاد المجاورة ..

هرش الرجل رأسه ثم دعاه بهدوء إلى الدخول :

- تفضل .

- اعذرني .. أريد أن تدلّني فقط على منزلنا ..

- هيا .. ادخل .

وجذبه من قميصه إلى داخل البيت الذي تفوح منه رائحة النوم ، دخل إبراهيم دون أن يتكلم ، والخجل يكاد يخنقه لشعوره أنه قد أحرج الرجل في هذا الوقت الغير مناسب . أشعل الرجل النور ثم جلس قبالة إبراهيم ، أخذ يتفحصه بعينين ذابلتين يغالبهما النعاس ، وبعد أن تنفس بعمق ، قال :

- أشياء كثيرة تغيرت يا إبراهيم منذ غيابك ، حتى منزلكم القديم لم يعد موجوداً ، وسأقص عليك ذلك في وقت آخر بعد أن تستريح ؛ ريثما نعد لك كوباً من الشاي .. اكتفي إبراهيم بهز رأسه ، ويده تعبث بشعيرات شاربه الصغير، وفضول حزين لمعرفة ماذا حصل لبيتهم ؟..

الليل يوغل في متاهة الظلام وهو يسري متثاقلاً نحو نهايته ..

مازال إبراهيم متلفعاً بالصمت ، حين دخلت فتاة في الثامنة عشر من عمرها ، النوم في عينيها ، ملتحفة ملاءة من الكتان الأبيض المنقوش ، تحمل صينية متوسطة الحجم عليها كوب من الشاي ، وضعتها أمام إبراهيم دون أن تتكلم .. نظر إليها ، بهره جمالها الفطري البريء ، استباح لمسها بعينيه ،

فأرسل خياله يحوم حولها بعد أن خرجت ، رغم شعوره بالتعب .. فقد أيقظت فيه رغبة نائمة ، جعلته لايشعر بدخول الرجل ، سرقته اللحظة من واقعه وأحس أن لهيبها قد أصابه ، اندهش لذلك واستغرب .. كيف استفاقت رغائبه في هذا الوقت المشروخ المثقل بالهموم ، حاول أن يطفىء بريق الرغبة في عينيه حين حثه الرجل على تناول الشاي ، وهو يطلب منه أن يقضي ماتبقي من الليل في ضيافته - لم يمانع - خرج الرجل وتركه لينام حتى الصباح ، لكن مشاعره القلقة لم تسعفه على النوم ، رغم ثقل جفونه على عينيه ، وزاد من جفوة النوم تلك المفاجئة الغريبة حين لامست عيناه وجه الفتاة المضيء في ظلام واقع جديد داخل الحارة التي كان يعرفها على أرض الوطن ، والتي بدت له متاهة لايعرف مجاهلها .

الصباح متسارعاً، يخرج إبراهيم مع الرجل مهموماً مكسور العواطف والأحاسيس ، كان يتمنى لو أنه رأى الفتاة مرة أخرى - تحسر على تلك اللحظات القصيرة التي شاهدها فيها ، وحزن خافت يطل من عينيه . ترك ذلك جانباً وانشغل بما أخبره الرجل عن بيتهم القديم الذي هدمه العدو أثناء الانتفاضة ، ثم أزيلت بقاياه بعد أن أصبح جزءاً من طريق جديد ، وأن والده يسكن في منزل آخر هما في الطريق إليه .. وأخذ يتخيل المنزل الجديد وهو يتنفس هواء الصباح الرطب الدافئ بعد سكون ليل مليء بأسراره الدفينة في نفوس البشر داخل بيوتهم فوق فراشهم بعيداً عن أحبائهم ، أو بين أحضانهم .. وهو يجر قدميه واجماً ، والرجل بجانبه يلتفت إليه من حين لآخر .. كان غير قادر على الكلام معه بسبب شوقه المغلف بالهموم لرؤية الأهل بعد الغيبة الطويلة ، ولمعرفة المنزل وموقعه ،

وهل يشبه ذلك البيت القديم الذي أخذ معه تلك الذكريات العزيزة عليه.. اشتد ألمه وهو يفتقدها ، وفي غمرة انشغاله بذلك توقف الرجل عند شجرة سنط كبيرة، وأشار إلى إبراهيم وأفهمه أن بيتهم يقع خلف تلك البناية المنخفضة التي تحيط بها بعض الرمال .. ثم ودعه ورجع مسرعاً في نفس الطريق الذي أتيا منه .

بدأ قلب إبراهيم يخفق بوتيرة أسرع من المعتاد وهو يتقدم نحو الجهة التي أشار إليها الرجل ، ومرارة تلسع حلقه ؛ لأن المكان غريب كئيب لايحمل شيئاً من ذكريات طفولته ، لكن لاسبيل إلى التراجع .

تردد قليلاً ثم واصل سيره مطأطئ الرأس إلى أن وصل إلى منزل صغير له باب كالح الألوان ، داهمته رغبة بالابتعاد قبل أن يطرقه إلا أن شوقه إلى عناق أهله دفعه إلى طرقه بقوة .. ينفرج الباب ، يطل منه شاب طويل القامة، بادره إبراهيم قائلاً :

- هل هذا بيت "أبو إبراهيم " .

أجاب الشاب :

- نعم . ولكن من أنت؟

تبسم إبراهيم وقال :

- أنا ابنه إبراهيم .. لابد أنك أخي .

قالها وهو يرفع عينيه إليه .. توقع من الشاب بعد أن سمع ذلك أن يعانقه أو يرحب به بحرارة ، لكن الشاب مد يده إليه ببرود وهو يقول بلهجة فاترة :

- تفضل .. إنه يجلس في غرفته ..

أصيب إبراهيم بإحباط انتزعه من فرحة متوقعة ، تولدت لحظة عثوره على بيت العائلة .. كان الشاب ما زال واقفاً عند الباب ؛ يتفحص الوافد الجديد - بفضول بارد - وهو يتجه إلى الغرفة التي يجلس فيها والده ، وحين دخلها قابله رجل ضعيف بانت عليه آثار الزمن والشيخوخة فيعانقه وقد أذهلته المفاجئة .. لايصدق أنه يعانق ابنه إبراهيم وهو يقول :

- لقد طالت غيبتك يا ولدي ..

والدموع تنهمر من عينيه الضيقتين .. تجمَّع الأخوة والأخوات .. عانقهم إبراهيم بشوق الغائب .. أما هم فاكتفوا بحياد الغرباء وهم ينظرون إليه بعد أن عانقهم .. وأيقن أن سنوات غيابه كانت كافيه لهذه العاطفة الباردة التي استقبله فيها إخوته ، وأباح لنفسه أن يغفر لهم ذلك ؛ لأنهم لايعرفون حقيقة ظروفه الصعبة طيلة سنوات البعاد ، ولام نفسه لأنه لم يحاول أن يشرح لهم ذلك في رسائله القليلة لهم ، ولم يحاول أيضاً أن يرسل صورة حديثة له .. انتظر أن تطل والدته عليه ، لكنها لم تأت ، تلفّت حوله .. استطاع أن يقرأ ما في عيون الواقفين أمامه ، لم يطُل انتظاره .. اقترب منه والده وأخبره أن والدته قد توفيت منذ عام ولم يخبروه . تملكه حزن عميق .. أحس أن جزءاً من قلبه قد سقط من مكانه ، شعر بوحدة موحشة رغم وجوده بينهم ، نظر إلى والده ، أحس أن الزمن يتقدم به إلى نِهايته ، ثم نظر إلى إخوته فرأى على وجوههم تساؤل حائر أفصح عنه أصغرهم حين قال لإبراهيم :

- أين حقائبك ؟

أفاق من ذهوله وشعر بالخجل لأنه لم يشرِ لهم شيئا.. فهم لايعرفون أنه

خرج من بيتهم القديم في تلك فقيراً وعاد إليهم في بيتهم هذا أكثر فقراً..
لاذ بالصمت ؛ فهو أفصح جواب في لحظة ينعدم فيها جدوى الكلام ، لم يحاول الرد .. ليس لديه أي تبرير أو حجة تقنعهم .. عيونهم تقتحمه .. فيها ترقب وفضول .. زادت حيرته فاضطر إلى أن يقول بصوت متآكل :

- سأشتري لكم ماتريدون .

مطت إحدى شقيقاته شفتها السفلى امتعاضاً حين سمعت ذلك .

أحس أن العلاقات بينه وبينهم ليست كما تخيّلها في غيابه عنهم .. وردد في داخله :

- يبدو أن سنوات الاحتلال جعلت لكل شيء ثمن ، حتى العواطف بينهم لها ثمنها ..

تَسَحَّبَ مبتعداً عنهم بعد تلك الطقوس الاحتفالية الفاترة التي أبعدته عن اللحظة الراهنة ونقلته بعيداً إلى ذلك الماضي بذكرياته ما بين غيابه وحضوره ، إلى تلك الزوايا البعيدة في ذاكرته ، وأمه تدعوه إلى تناول الطعام وهي تُفسح له مكاناً بجانبها .. كان يحلم بتلك العواطف الضائعة التي افتقدها في حاضره ، وهو يحاول أن يجد له مكاناً بينهم أو حتي بعيداً عنهم . لم ينتبه الأهل إلى أنه يقترب من باب المنزل يحاول الخروج سوى أخته الوسطى التي كانت تتابعه ، فأسرعت إليه وطلبت منه أن ينتظر ويبقى حتى تعد الطعام ، نظر إليها بعينين دامعتين ، ورجته أن يتفهم موقفهم فقد كبروا ونمت عواطفهم بعيداً عنه .. ربت عليها وقال :

- إنه يحتاج إلى أن ينام قليلاً .

لم يتحرك أحد ويدعوه إلى مكان يستطيع النوم فيه. انتظر وهو يقف

بجانب أخته .. أخافته تلك النظرات التي تبادلها إخوته وكانت تكفي للتعبير عن رغبتهم في رحيله ، جاءه صوت أبيه قائلاً :

- تستطيع أن تنام مكاني ريثما يتدبرون مكاناً لنومك ..

دخل غرفة أبيه العارية من الأثاث - فرشة قديمة وبعض البطاطين تفوح منها رائحة العرق - رمي نفسه عليها لكنه لم يشعر بالتوحد مع المكان .. لقد تغير كل شيء .. بيت غريب وأهل أكثر غرابة .. ألحّ عليه الرحيل ليواصل حياته .. في مكان آخر - ليس داخل هذا المنزل - لكن ليس بعيدا عنه ، طار النوم من عينيه والأفكار تداهمه ، نهض واتجه إلى المطبخ ليشعر ببعض الأُلفة مع أخته التي ألحت عليه البقاء لتناول الطعام ، رآها مشغولة بإعداد ما وعدت به ، تذكر والدته وتمنى لو أنها هي التي تُعد له الطعام ، طفرت دمعة من عينه - أحسّ أنه وحيد ، غريب - وهو يسمع إخوته يتهامسون حين رآوه يتجه إلى المطبخ - لم تلمحه أخته وهو يدخل بهدوء.. تفحصها لعله يجد فيها شيئاً من أُمه .. عطس فجأة فأوجست وارتبكت والتفتت إليه وقالت بوجل :

- كان الأجدر بك أن لاتدخل متلصصاً وتفزعني .. ثم عادت بلا اكتراث إلى عملها - بدت له أخته شديدة الكآبة لا تمت إلى هيئة والدته بوجهها الهادئ الأنيس .. اقترب من أخته وسألها :

- هل ذَكَرَتْنيِ أمي قبل وفاتها ؟

نظرت إليه واكتفت بهز كتفيها ، وبدا أنها لم تفهم معني سؤاله .. مسح نظارته بطرف قميصه وأعادها إلى عينيه ثم نظر ملياً إلى أخته ، التفتت إليه مرة أخرى وعلى وجهها بعض الكدر والريبة، شعر أنها مستاءة من وجوده،

حاول أن يكلمها ليشعر بأنه واحد منهم وأنه أخ لها .. لم تشجعه ، وبدا ذلك مستحيلاً .. خرج من المطبخ وقد خبت العاطفة في نفسه فضغط شفتيه وتنهد بعمق .. لم تبق رغبة في داخله للبقاء في هذا البيت الملعون .. عاد إلى فراش والده .. رمى جسده عليه .. وراح يبتعد في خياله عن المكان .. حزنه يتنامى ، وحسرة على أيام الصفاء في زمن الطفولة البريئة داخل حقول البرتقال واللوز والصنوبر ، لقد ولى ذلك الزمن وجاء زمن الجفاف في كل شيء ، ومات الربيع فوق الأرض ، واحتل السماسرة كل شيء .. بنوا عمارات ضخمة رمادية كئيبة فوق الأزهار والورود ، حل الجفاف ومات حب الوصال .. تذكّر كل ذلك فأخذ يجهش بالبكاء وهو يعاود نظرات الريبة والترحيب الفاتر الذي عمّق فيه مشاعر الوحدة وهو بينهم - غريب - اشتاق إلى الرحيل مرة أخرى بعيداً عنهم - داخل الوطن - وبإرادته هذه المرة إلى مكان أحب أن يرتاده وحده ، تحمله إليه مشاعره المبتورة لواقع مرير افتقد فيه دفء اللقاء ، وهو يعيش على هامش الحياة ، لايلمحه إلا القليلون ، بعيداً هارباً من توحش مأساته الجديدة ، رغم أنه يعيشها وهو يجتر عذاباته الماثلة أمامه .

وجد نفسه يندفع بسرعة خارج البيت لم يلحق به أحد ، أخذ يبتعد ويندب حظه التعيس فوق أرضه المسروقة من أحلامه ، لايستطيع أن يفعل شيئاً ليغيّر هذا الواقع الذي يضغط عليه ويدفعه إلى الجنون .

يعود إلى نفس الطريق الذي أتى منه .. يواصل السير ..

يصل إلى بيت الرجل الذي دق بابه الليلة الماضية يتوقف ، حاول أن يدق الباب كما فعل في الليلة الماضية ، لكنه أطرق بنظره إلى الأرض

خجلاً .. واستمر واقفاً أمام الباب ، لعلها تخرج وتلقاه واقفاً .

لايعرف ماذا سيحدث حين تلتقي عيناه بعينيها ؟ أو ماذا سيقول لو أطل أبوها ؟ أخذ يبحث في زوايا نفسه الضيقة عن تبرير لوقفته أمام الباب ، وفي خياله تلك الفتاة الجميلة التي شدته للبقاء قريباً منها دون أن تدري ، كطائر الكيوي مرتبطاً بالمكان لايستطيع أن يحلق بعيداً عنه، فهو بلا أجنحة.. يمضي الوقت متثاقلاً ، وإبراهيم ما زال ينتظر وقد صمم على شيء ما .. مشاعر ما بين الخوف والقلق تزحف إلى أعماقه ، حين سمع صوت مزلاج الباب .. ارتسمت على وجهه الدميم ابتسامة وهو يترقب .. لكنها كانت ابتسامة ذابلة تحكي ضياع أحلامه وكشف سره التائه في بيداء الحياة، وهزيمة روحه الحالمة ■

يوليو - ١٩٩٥

الهروب مع الوطن

تواصل القطة مواءها فوق حصيرة قديمة في ركن من فناء بيتنا القديم ، يتابعها أخي الصغير ويحاول أن يقترب منها ، ينظر إلى الجهة التي تجلس فيها والدتي ، فقد حذرته ألا يشاكسها ..

كانت مشغولة بتحضير طعام الغذاء البسيط وأخي الصغير يفرك عينيه بلطف براحة يده الصغيرة المكتنزة ، والنعاس يغالبه بعد أن هدأت حركته ، وهو ينتظر مجيء والدي من عمله ، كبائع متجول ، يحمل بضاعته من ، الأقمشة الشعبية وبعض لوازم النساء الرخيصة على عربة "كارو" متوسطة الحجم ، يجرها حمار هزيل يُوليه عنايته ورعايته بصورة أوحت إلينا أن هذا الحمار يحظى باهتمام أكثر مما نحظى به نحن أفراد أسرته حتى بتنا نحسد ذلك الحمار المسكين ، ونشعر بالغيرة كلما اقترب منه والدي يعلق "مخلاة" طعامه على رقبته ليأكل . كنا نتمنى أحياناً أن تجتاح الحمار مصيبة تكون فيها نهايته . لم نكن نعرف قيمته عند والدي ..

لم يكن والدي يتأخر عن موعده المعتاد ، فقد كان حريصا ألا يتأخر مهما بَعُد مشواره ، وحين يدخل تكون يداه مشغولتين بحمل بعض ما طلبته والدتي من حاجات ضرورية ، معظمها يخص طعامنا ؛ بعض الخضار والبقوليات وأشياء أخرى قليلة تخبره بها والدتي قبل أن يودعها كعادته ، وهو يبدأ عمله في الصباح الباكر . كنا نتسابق أنا وأخوتي لحمل ما في يديه ، ثم نسرع لنأخذ مكاننا المعتاد حول "طبلية" الطعام . وكان

أخي الصغير بعينيه شبه المغمضتين أول من يجلس قرب المكان المخصص لأبي ، وكنت أفضل أحياناً أن أكون بجانب والدتي ، لأنها كانت تخصني بقطعة من اللحم إضافة إلى نصيبي الذي كانت والدتي توزعه علينا خوفاً من أن يُظلم أحد وكثيراً ما طلبتُ منها ، بعد انتهاء وجبة الطعام أن لا تفعل ذلك لأنه من نصيبها وهي تحتاجه لمواصلة عملها المستمر في البيت .

كانت تقول لي إنها تفعل ذلك لكي أقدر على متابعة دراستي بنشاط وهمة أكثر . كنت في ذلك الوقت في آخر سنة في المرحلة الثانوية . لم أخفِ سعادتي أمامها وهي تقول لإخوتي بعد ذلك - لأن عيونهم كانت ترقب ماتفعله لي - بأنني الكبير وسأعوضهم عن ذلك حين أتخرج من الجامعة وأعمل مدرساً، فقد كانت هذه أمنيتها ، رغم قلة دخل والدي ، وحين كنت أناقشها فيما يتعلق بهذا الموضوع كانت تكشف عن جزء من ساعدها وهي تشير إلى سوارين كبيرين من الذهب كانا مهراً لها ، استطاع والدي بعد عناء توفير ثمنهما ، حين طالبه جدي بذلك عندما ذهب ليخطب والدتي قبل سبع عشرة سنة ، بحجة ضمان مستقبل ابنته ولم يبخل والدي ، دفع كل ما ادخره ليرضي جدي ويتزوج من ابنته التي كانت معروفة بالحي بأنها "ست بيت ممتازة" .

وعندما كنت أقول لها إنني لا أريد أن أكون مدرساً ، كانت تمتعض ، لأنها تحب أن تكون مثل جارتنا أم سليم التي تتباهى أمام نسوة الحارة بابنها مدرس العلوم في مدرسة الشهيد عبد القادر الحسيني الإعدادية في خان يونس ، وتحثني على تحقيق رغبتها وهي تدعو لي بالتوفيق ، فأقبّل يدها وأقول لها كما تريدين إن شاء الله . كانت بالكاد تعرف أن تقرأ وتكتب ،

لأن العُرف السائد في ذلك الوقت كان يفضل أن تكون البنت ماهرة في أعمال البيت من طهي وغسل ونظافة ، فهذا هو تاجها في بيتها ، وشهادتها التي تفوق في نظرهم أية شهادة أخرى ، فإن إتقان طبخة ملوخية يساوي لديهم في قيمته أكثر من حصولها على الابتدائية ..

وكلما ناقشت والدتي لماذا تصر على أن أكون مدرساً كانت تقول بعفوية وبساطة :

- إنه دوماً يكون بجانب أهله في البيت . ويأخذ إجازات طويلة .. وراتبه معقول .

لم تكن تدري كم يعاني المدرس في عمله أثناء دوامه وخارجه ، فهي مهنة تتبع المدرس داخل منزله وهو يقوم بتحضير دروسه أو تصحيح بعض ما تراكم من دفاتر الطلاب أو حين يضع الاختبارات ، وما مدى ما تحققه من أهداف تربوية في عملية قياس وتقييم قدرات الطلاب .

لم نكن نستطيع أن نتناول شيئاً من طعام أمامنا إلا بعد أن يأخذ والدي مكانه المعهود بيننا . وكان يحثنا دوماً على ذكر اسم الله قبل البدء في تناول الطعام ، وما أن يجلس حتى تبدأ الأيدي الصغيرة لإخوتي تتشابك فوق وعند الأطباق القليلة أمامهم ، وما أن يرى والدي هذا التزاحم حتى يعلو صوته منبهاً إلى شيء من النظام والهدوء ، لكن البطون الجائعة لا تعرف النظام فتستمر الأيدي في صراعها من أجل الوصول إلى أطباق الطعام ، ووالدتي تفرغ ما تبقي من الطبيخ فيها .

كان أخي الصغير أول من ينهض من مكانه حول الطعام - لا لشعور بالامتلاء ولكن لينتهز فرصة انشغال أبي بطعامه فيذهب وهو يكاد يطير من

الفـرح ليعـتلي ظهر الحـمار الهـزيل المتـعب ، وهو مربوط أمـام باب منزلنا القديم ، لحظات تمر ونسمع بعدها صراخه وبكاءه ، أهرول لاستطلاع الأمر فاكتشف أنه قد وقع على الأرض قرب الحمار ، متهماً إياه بأنه أسقطه حين حاول ركوبه ، فـأضحك وأحمله ، بعد أن أشـد أذنيه لتأنيبـه حتى لايكرر ذلك ... لكن بلا فائدة . ومـا أن تراني والدتي قادماً وأنا أحمله حـتى تدعو لي بالنجـاح والستـر والتـوفيق ، ثم أعـود إلى تناول الطعـام وما أن ينتـهي والدي حتى يزداد تشابك أيدي الصغار وهم يبحثون عن بقايا قطعة لحم أو عظمة صغيرة يتمتعون "بنهشها" كما كانوا يقولون ..

كنت أسـمع أبي وهو يتجـشـأ ويحمـد الله على نعـمتـه ويجلس على الحـصيـرة في ركـن الفناء ، بعـد أن تكون القطـة قـد غـادرتها بحـشاً عن طعامها قـرب باب الغرفة التي ما زال فيها إخوتي يتـحلقون حول "الطبلية" المعـهودة ووالدتي تلملـم ما سـقط من الطعام علـى أرضيـة الغرفـة المغطاة بسـجـادة قـديمة ترجع إلى بداية زواجـهـا بأبي .. وبعـد أن ننتـهي من رفع الأطباق .. يطلب منها والدي فنجـان قهوته المعتاد بعـد الغذاء ، فتلبي ذلك قبل أن تغسل أواني الطعام . لأنها تعتبر طلباته أموراً لها احترامها وقداستها كما تعودت على ذلك .

مر ذلك في خاطري وأنا أقبع في نفس الغـرفة التي حفلت بي طفلاً بين والدتي وإخوتي ، أجول ببصـري من مكاني في الزاوية التي يسمح بها باب الغرفة المفتـوح ، هناك استقرت عيناي قرب الجـدار الغربي للمنزل ، عندما ساعـدت والدي في حفـر خندق صغيـر غطيناه ببعض الأخـشاب ، وباب خشبي كان مُعداً لغرفة جديدة سنبنيها مستقبلاً . كان الخندق صغيراً لايتسع

إلا لشخصين بالغين أو لثلاثة أطفال ، لكنه كان ضرورياً ليحتمي به بعض أفراد الأسرة ، إذا اشتد إطلاق قذائف المدافع التي بدأت - على فترات غير متساوية في مدتها - بين القذيفة والأخري التي تليها .

كان ذلك في السابع من شهر يونيو "حزيران" سنة ١٩٦٧ حين بدأت - ما أطلق عليه فيما بعد - "النكسة" ، يتزايد صوت الانفجارات والمدافع تطلق قذائفها بوتيرة أسرع ، جدران البيت تهتز ، يعلو صراخ أخي الصغير عندما تنفجر قنبلة قريبة من المنزل ، تتجه والدتي بسرعة وتلهف إليه ، وتحاول أن تهدئ روعه وتبعد خوفه ، رغم هلعها على بقية أفراد أسرتها وخوفها على نفسها ، كان قلبها يمتلئ رعباً على المتخندقين في فناء المنزل ، لأن الحفرة ضعيفة وضيقة ، وشظايا القنابل بدأت تغزوه عندما تكاثرت وهدمت بعض المنازل ، وقتلت وأصابت بعض قاطنيها في المنطقة السكنية المتزاحمة البيوت ، التي يقع فيها منزلنا القديم ، تملكتها رعدة خوف كبير حين شاهدت الدخان يصعد من المنزل المجاور ، فحملت صغيرها واتجهت نحو الخندق وحين رأت الرؤوس الصغيرة لأخوتي الثلاثة بسلام ، اطمأنت ورجعت إلى غرفتها ، ثم جلست في مكان تستطيع مراقبة الركن الذي فيه الخندق . كنت بجانبها أما والدي فكان في الغرفة الأخرى مع اثنين من إخوتى .

يخف صوت انفجار القنابل قرب المغرب ، يخرج والدي ليطمئن على الحمار المربوط قرب الباب كالعادة بعد أن يجيء من السوق الذي يقع قرب المقبرة الواسعة على أطراف مدينة "خان يونس" ، هناك يتجمع بعض البائعين ، يعرضون سلعهم المختلفة البسيطة ، ويتنافسون في تخفيض

سعرها لجلب الزبائن الذين يتجولون بين خيام الباعة التي تُقام على بعض الأعمدة الخشبية أوالحديدية بأحجام مختلفة لتقيهم أشعة الشمس في الصيف والأمطار في الشتاء ، وما أن يقترب وقت صلاة الظهر حتى يشتد التنافس لخطف عدد أكبر من المشترين بأسعار زهيدة .. ورغم ذلك فإن الزبون لا يشتري إلا بعد أن يتجول عدة مرات بين الباعة . وحين يكتشف أقلهم سعراً يشتري الضروريات لأن دخله من النقود في ذلك الوقت كان قليلاً ويصعب تبديده في شراء أشياء لايحتاجها في معيشته في القريب المنظور من الأيام في واقعه المكرور ..

أتذكر حين أملّ من تناول الطعام ، في كل يوم ، والذي لا يختلف كثيراً عن اليوم السابق كنت أطلب من أبي طعاماً أكثر تنوعاً - فيأتيني صوته مجلجلاً - "ما جود إلا من الموجود" ثم يُتبع ذلك سعالاً متكلفاً وهو يردد "الحمد لله".. "الحمد لله"، وكان يقولها مع أي موقف أو حديث يتعلق بالواقع والحياة - التي رغم بساطتها - لم تكن تخلو من القلق والتوتر مع مايحدث أحياناً على الحدود الفاصلة بين الوطن الواحد بسبب الاحتلال ..

يحل الليل ويسحب معه ظلاله السوداء على "خان يونس" بأركانها الأربعة ، الناس يلفهم الخوف ، بعضهم فضل أن يبقى في بيته مُصراً على استقبال المجهول . وهو يعرف المكان الذي يقف عليه بعد أن جرب الرحيل الأول عن أرض الوطن ، مع أوهام الرجوع القريب إليه ، وحين طال الوقت ومضت السنون ، وهم في جزء آخر من الوطن أقل اتساعاً وأقل سخاءً بدا لهم الموقف - الآن - مختلفاً ، فالخوف يبقى ماثلاً مهما اختلف المكان .. والموت لا يُفرق بين الناس هنا أو هناك ، لم يوافق والدي على

ترك المنزل كما أشار عليه بعض الجيران ، الذين تركوا بيوتهم والتجأوا إلى المزارع قرب البحر - وكانوا يطلقون عليها المواصي - وكأنهم يحتمون بالبحر ، يستمدون منه قوته على البقاء - التي اكتسبها من خبرته الطويلة - كشاهد على جهل البشر ، وهم يستعجلون النهاية بحروبهم التي يشعلون نارها وهم في غفلة من أن الموت قادم لا محالة .

خرجت من الغرفة القريبة من باب منزلنا الشعبي بفنائه المفتوح على السماء التي اختفت منها النجوم خلف سحب الدخان المتصاعد من محطة الوقود التي اشتعلت بعد إصابتها بإحدى "الدانات" الضخمة لمدفعية العدو الثقيلة .. التي لم يكن لها ضرورة .. فليس هناك قلاع حربية أو أسوار عالية ولا حتي هناك أسلحة ضخمة تقاوم - فقد ضاع كل شيء - وبسرعة دون يكون هناك فرصة لصحوة منظمة للصمود .. كان الانبهار كبيراً بين المواطنين بسبب ثقة مستجافة أقنعتها بهم أصوات عريضة من الراديو ومانشيتات كبيرة في الصحف - لم أصدق .. ماسمعته من القادمين من وسط المدينة من أن اليهود هناك بدباباتهم . اخترقوا الصفوف الواثقة بالدعاية - وأتوا من " بني سهيلا " القرية الحدودية شرق خان يونس ، كان المظهر العام الذي سبق الخامس من يونيو يوحي بأن الانتصار قادم - حتى إنني اندفعت إلى مراكز التدريب الشعبي التي أقيمت على عجل . وطلبت أن أنضم إليهم - لكن المسؤول قال لي :

- لانحتاج لمن هم في سنك .

وأشار بيده إلى جموع الرجال الذين توافدوا لحمل السلاح . وكان عبارة عن بندقية نصف آلية صينية الصنع.. كنت أذهب لمشاهدة

نقاط الدفاع الشعبي التي وُزعت في أماكن مرتفعة .."تكيتكية".. تحيط بالمدينة .. ولكن ماذا تنفع البندقية ؟ أمام دبابة حديثة تظهر - بلا توقع - أمام أولئك المخدوعين وهم يتباهون بأسلحتهم الخفيفة ، ينتظرون الإسقاط الجوي الذي أشاعه بعض المسؤولين من ضمن توقعاتهم لمجريات معارك لم يحدث أي منها .

وكانت الصدمة كبيرة بحجم تلك الأوهام الكبيرة .. لم أستوعب ماجرى كشاب صغير وأنا أرجع إلى الغرفة ، كان الخوف يزحف إلى جسدي مع سكون إخوتي كلهم في الغرفة المجاورة مع والدتي ، أما والدي فقد خرج يحمل بندقيته ، يستطلع حقيقة مايجري ومعه بعض الرجال من الجيران الذي بقوا في بيوتهم .. تسلل إليَّ صوت مذياع من المنزل المجاور يبث أغنية وطنية ، أطرقت السمع ، مستلقياً على ظهري واضعاً كفيْ خلف رأسي - لا أري شيئاً رغم أن عيني ، تبحثان عن ضوء في هذا الظلام ، لم أشعل المصباح لأن والدتي أوصتني - وبخبرتها في الحروب التي شهدتها - أن لا أشعله وقالت :

- إن الظلام يضلل الأعداء .. لم أستقر في مكاني ، فتحت النافذة الصغيرة بهدوء ، بالدرجة التي تسمح لي أن أراقب المكان خارج البيت في ظل الليل دون أن يكتشفني أحد من العابرين وهم في طريقهم إلى البحر ، لم أستطع أن أرى بوضوح ، لكنني كنت أسمع بعض كلامهم ووقع أقدامهم وهم يواصلون سيرهم في الطريق المحازي لمنزلنا .. وحين يداخلني الضجر من وقفتي أعود إلى مكاني ، ثم أنهض ، ونار انتظار والدي تكاد تحرق ما تبقى لدي من صبر ، أتحسس طريقي وأخرج من

الغرفـة ، كدت أن أتعثر بعـتبة الباب . ذهبـت إلى الغرفة التي تجلس فيـها والدتي مع إخوتي والظلام يلفهم، نبهتها حتى لا أفزعها وأفزعهم .. قائلاً :

- أنا عادل .

يأتيني صوتها متلهفاً :

- ما بك ؟ تعال .

قلت :

- أريد أن أخرج لأسأل عن أبي .

رفضت وقالت :

- لقد أخبرني أنه قد يتأخر فلا تقلق عليه .

طلبت منـي أن أبقى بجـانبـهـا ، عـرفت - من صـوتـهـا - أنهـا قلقـة ومضطربة ، رغم خوضـها التجربة من قبل . إلا أن الاستـزادة من التجريب المفروض يدفع إلى مزيد من القلق لمعرفة نتـيجته في ظروف قد تختلف عن سابقتها في الشكل لكنها تتشابه معها في طبيعتها ومكوناتها الأساسية .

كـان القلق بالنسبـة لي بليـة مـحـببـة لأنه يشـحـذ العـواطف ويرهف الأحاسيس ، ويزيد الأرق الذي يبعث الذكريات من مكانها ويصبح التقلب على الفـراش نوعاً من الكشف - رغم الظلام الذي يحـيط بكل شيء - مما يجعـل الأشكال تبتـعد عن أحجـامهـا الحقـيقـية وتبدو أكـبر مما هي عـليه فتتلاشى الفراغات بينها وتحـيط بها هالات كثيرة تبتلع كل المكان . فلا ترى العـيون إلا ظلامـاً فـوق ظلام يعـقبـه ويلتـحم به ليـضغط عـلى الأجفـان المرتجفـة.. وقد أنهكتـها الحملـقة في فراغ مملوء بالوهـم . إلا أن الذكريات تبقى كـما هي وسط هيـولة الظلام في هذا الليل البائس ، يجسـدها الخيال

بوضوح متفاوت ، يزداد مع الغوص عميقاً في متاهاتها ، يبدد تماثلها مع موت الضياء .

أعود إلى مكاني في الغرفة المجاورة بعد أن أطلب من أمي أن تدعو لي- في هذه الليلة الظلماء الطويلة .. يصل إليّ صوت المذياع أكثر وضوحاً لكن الأغنية لم تكن وطنية هذه المرة بل كانت عاطفية حزينة .

يجرفني موسم جديد من الذكريات حددتها معاني تلك الأغنية - فأنسى خوفي المؤقت وانغمس في قلق على "دعاء " بنت الجيران التي أصابتها شظية من قذيفة دمرت جزءاً من منزلهم - نقلوها إلى مستشفى ناصر على أطراف الحي السكني ، كنت أود لو أستطيع الذهاب إليها لأطمئن عليها ، لكن العادات، والعرف، والخوف من كشف المستور بيننا منعوني لقد كنت أحبها وهي تبادلني عاطفتي ، دون أن نلتقي - إلا عبر عيوننا ، من بعيد - كلما لاحت فرصة لذلك ، سمحت لنفسي مرة أن ألقي أمامها رسالة كتبتها أبث فيها هيامي ، وأحثها على انتهاز فرصة لقاء قصير وهي عائدة من مدرسة بنات حيفا الثانوية .. راقبتها على بعد ، نظرت حولها ثم انحنت وأخذتها ، تهلل وجهي وخفق قلبي ، وانتظرت بعد ذلك - متلهفاً - لحظة لقاء تجود بها.. ويتحقق لي مبادلتها الكلام و الهيام .. طال انتظاري ، مرت الأيام واكتفيت بنظرات العتاب التي كانت ترسلها عيناها كلما التقت بعيني مصادفة على فترات حسب الظروف التي تسمح بسرقة لحظة من زمن لايخلو من عين متلصصة ترقب مايدور بين الآخرين وهم غافلون عنها لانشغالهم بقطف ثمارها الموسمية على عجل وهم سعداء بهذا اللقاء في مكان ظنوا أنه خلف الستار ..

ينزعني صوت بعض الطائرات من خيالاتى، وهي تعبر الأجواء فوق المدينة مخترقة حاجز الصوت ، فتدوي فرقعة مخيفة تزيد من فزع الجميع الذين يترقبون بزوغ الشمس لمعرفة الجديد الذي قد يلقي الضوء على حقيقة مايجري ، يزداد صراخ الأطفال وعويلهم المختلط بالبكاء،جاءت والدتي لتطمئن على وهي تتمتم بالدعاء عسى الله أن يفرجها علينا وينتهي زمن الكرب بقسوته ويعود لنا الهدوء..

في آخر الليل يفتح والدى، باب المنزل ويدخل، لم تكن أمي قد نامت - لكن إخوتي - وقد أعياهم السهر الكثيب وصوت الانفجارات الشديدة. انكمشوا وراحو في نوم قاهر لم يستطيعوا رده عن عيونهم المرهقة بسبب التحديق في فراغ الليل ، يدخل الغرفة التي استلقي فيها تحت النافذة ، يكتشفني على ضوء قداحته الواهن الضعيف ، التي يستخدمها لإشعال لفافة تبغ يقوم بلفها كلما شده الشوق إلى التدخين ، لم يكلمني ظن أنني نائم ، تركني ودخل الغرفة الأخرى فتستقبله والدتي بالسؤال عن جديد يكون قد عرفه في غيبته طيلة الساعات المنصرمة . يقول لها :

- لقد سقط قطاع غزة ، ولم يتبق إلا خان يونس ، هناك بعض المقاومة الفردية قرب مداخلها ، وبالذات قرب عمارة أبودقة ويقول الذين قدموا من هناك: أن طابوراً من الدبابات قد توقف نتيجة مقاومة جندي يحتمي بالعمارة، استطاع أن يصيب بعض دبابات العدو في ذلك المكان بعد أن رفض مواصلة الانسحاب مع كتيبته ، وتحمل مسؤولية الدفاع، رغم معرفته بحقيقة الموقف العسكري المتردي وقال لهم مصمماً قبل أن يتركوه، أنه سيستمر في إطلاق النار من مدفعه حتى تنتهي ذخيرته..

قالت بعد أن سمعت ما أخبرها به متأثرة :

- الله ينصره ويقويه على أعدائه ..

وسألته :

-هل تعد له بعض الطعام ؟

قال متأسياً :

- "لانفس لي للأكل" .

وأخرج علبة التبغ وأخذ يلف سيجارة ثم أشعلها بحرص وأخذ يدخنها على مهل .. ويده الأخرى تتحسس أبناءه النائمين كعادته .

تبزغ الشمس مكفهرة في الصباح وتطل من بين الدخان العالق في الهواء فوق خان يونس .. ومع أول خيوطها الصدئة .. بدأت مدفعية العدو بقصف عشوائي للمدينة .. يستيقظ الأطفال والفزع في عيونهم ، تتجه بهم والدتي إلى الملجأ وتضع ثلاثة منهم فيه. ثم تتجه إلى الغرفة التي نمت فيها . فتجدني جالساً في حالة ترقب شاحب اللون .. طلبت منها أن تصنع لي ساندوتشاً من الجبن الأبيض عليه بعض الفلفل الأحمر المطحون، وكوباً من الشاي لأنني شعرت بجوع شديد فلم أتناول شيئاً من الطعام طيلة اليوم السابق ، واكتفيت بشرب الماء فقط لاضطرابي وحزني على " دعاء "، أما والدي فكان يغط في نوم ثقيل، لم تفلح الانفجارات بإيقاظه فقد كان بحاجة إليه، وبجانبه أصغر إخوتي محتضناً ذراعه وهو ينتظر عودة أمي ..

ما زالت المدفعية تواصل دكها للمدينة - لكنها ركزت أكثر على الأحياء التي كانت تسمى المعسكرات وهي التي يقطنها الناس الذين نزحوا من مناطق من فلسطين أصبحت فيما بعد " إسرائيل " ومعظمهم من يافا ،

واللد ، والمجدل ، وبعض القرى المجاورة لتلك المدن .. وهذه المعسكرات عبارة عن مبان بسيطة سقوفها من " القرميد "، تكتظ بالأسر التي لايقل عدد أفراد الأسرة الواحدة منها عن سبعة أفراد في منزل بنته وكالة الغوث لايتعدى ثلاث غرف صغيرة مع آلاف المنازل التي بنتها على عجل بدلا من الخيام التي كانوا يعيشون فيها على أمل الرجوع ، ومع طول الوقت واضمحلال أمل العودة القريب ، كانت هذه المخيمات أو المعسكرات الملاذ من حر الصيف وبرد الشتاء الذين لفهم البؤس ، فانشغلوا بحياتهم ، عزاؤهم الوحيد الوصال في ليلهم الطويل المشحون بارتعاشات حبهم المبتور . ومع الاستمرار تكثر الأفواه نتيجة التوالد وتكبر العائلات وتزدحم البيوت والجميع يسير بوعي أوبدون وعي في دربه المرسوم، في حياة تجللها الحروب ، فينكمش الطموح ويصبح الحب هو السبيل إلى نسيان هموم الحياة.

تستغل أمي فترات الهدوء النسبي القصيرة بين كل دفقة من القصف المدفعي التي استطاعت أن تخمنها بإحساسها الفطري لكي تتجه إلى الخندق الصغير ، ترفع الغطاء الذي كان عبارة عن ملاءة قديمة تغطي فتحة الدخول إليه لكي تسمح للهواء بالدخول إلى الصغار، الذين ماأن يروا والدتي بعيونهم المترقبة القلقة، ووجوههم الصغيرة الوجلة التي يعلوها العرق بسبب ضيق المكان وارتفاع حرارته و تلاصق أجسادهم الصغيرة وتنفسهم المتسارع المضطرب الممزوج بالخوف والرعب ، حتى يرتفع صوتهم، فتطمئن قلوبهم وتهجع نفوسهم القلقة بعض الشيء .. تقول أختي الصغيرة متضايقة من المكان :

- إنها تريد أن تخرج من الخندق المسقوف .

تنظر أمي إليها بوجهها الحاني وقلبها يعتصره الخوف .. وتقول لها :

- أخاف عليكم .. فهنا بإذن الله أحسن لكم .

يندفع الصغار بصوت واحد :

- نريد الخروج ..

أدركت أن الوقت سيداهمهم بقصف جديد - فطلبت منهم أن يخرجوا بسرعه ويتجهوا إلى الغرفة الوسطى ويجلسوا تحت الطاولة الكبيرة - وهي تقول :

- الرب واحد والعمر واحد.

تتوالى الانفجارات التي تهز البيت البسيط الذي يرتجف مع كل انفجار وكأنه يشارك الجميع ذعرهم ورعبهم من قذيفة تحط عليهم وهم لايعرفون، متى ستنتهي أزمتهم؟ في هذا الموقف الغامض بالنسبة لهم.

لم أرغب أن أبقى في البيت ، خرجت وجلست مع بعض الشباب المتسلح بالبنادق النصف آلية قرب جدار سميك لأحد المنازل ، استطاع صاحبه أن يبنيه بعد أن هدم المنزل القديم وأقامه عليه بعد حصوله على عمل في إحدى دول الخليج .. كان الشباب متمسكين بسلاحهم ولم يصدقوا مانقله إليهم الآخرون الذين يعبرون المعسكر الذين يقومون بحراسته بعدما ثملوا من جرعات الدعاية عبر الإذاعة، حين أعلن الرئيس عبد الناصر إغلاق مضايق تيران فزعقت أبواقها في الفضاء وزاد الحماس في النفوس، وعملت جرعة التمويه الإعلامي عملها في الشباب فتملكتهم مشاعر الثقة وزرعت في أنفسهم الأمل بالنصر والعودة، وبات الكثير منهم

يحلم بالتخلص من المخيمات ومن بطاقات الإغاثة والوقوف في الطوابير أمام مراكز توزيع التموين التي كانت توزعه وكالة الغوث الدولية على الناس ، فتخدر عواطفهم ويستمرؤون معيشتهم في كسل متواصل .

وما أن لاحت لهم ومضة الأمل التي أشعلتها وسائل الإعلام حتى بات الكل يشعر بأن الجولة القادمة لهم ، وأخذت عبارات الاستخفاف بالعدو عبر الحدود تنتشر، وبالذات بين فئات الشباب ، فأخذت طابع التندر وأحياناً النكتة .. حتى أن أحد زملائي .. حملته أوهامه وطار به الخيال إلى عصر الغزاة بخيولهم وسيوفهم وهم يتبارون في أخذ الغنائم والسبايا بعد تحقيق النصر، فقال بصوت مرتفع رغم صوت الانفجارات من حوله :

- سوف أكون أكثركم نصيبا من الغنائم بعد العودة ..

فقلت له :

- وماذا عن النساء؟

فقال متحمسا وهو ينظر إلى الجميع متحمساً :

- لن أكتفي بواحدة .

- لاتنسي أننا مازلنا هنا.

- لاتقل ذلك وتحبطني .

- أمازلت مغرماً بالنساء رغم الحرب .

- حبهن في جسدي .

- الحب في الحرب سبيل اليائسين .

- لم نصل إلى ذلك - فالنصر يقترب .

- يقولون نصف خان يونس محتلة .

- لاتصدق هؤلاء الانهزاميين .

يعبُـر سرب مـن الطائرات الحـربية فـوق رؤوسنا .. يـنقطع الكلام مع انفجارات متتابعة عنيفة ، أنبطح على إثرها وكذلك الزملاء حـولي خوفا من الشظايا التي تنتشر بعد انفجار القنابل - هكذا فعلنا كما أخبرنا مسؤول الدفاع المدني - تهدأ الانفجارات ، ويخبو صوت الطائرات وهي تبتعد نحو البـحر . نـهضنا وأخـذنا ننفض التـراب عن ثيـابنا - ضـحكت .. رغـم أن الموقف لايحتمل الضـحك حين شاهدت زميلي - فارس النسـاء - ووجهه مغطى بالرمال لدرجة أنه لـم يستطع أن يفتح عينيه فأخذ يزيل عنهما التراب بيده ، وبعد أن أصـبح يرى ، بحث عن بندقيته فـوجدها مغمـوسة بالتراب تماما وكأنها شاركته ذعره.

تلاقت عـيوننا ، فـهم كل واحـد أن لافـائده مـن بقـائنا فـي مكاننـا قـرب الجـدار مع احتـمال رجوع الطائرات إلى قـصف المكان ، والشمس تميل إلى الغـروب .. عـاد كل واحد منا إلـى منزله وفي نفسه تسـاؤل، هل نحن في وهم كبير؟.

عدت إلى جـانب أمي التي قلقت عليّ ورجتني أن لاأخرج مـرة أخرى فلا أمـان في هذا الوقت العصـيب ، والدي يدخن إحـدى لفائفه من الـتبغ الرخيص .. أمامه مذياع صغير لم أره من قـبل، أسأله عن مصدره فيخبرني بأن الحاج خليل أعطاه له لكي يتابع الأخبار فهو يملك جهاز آخر أكبر، ومن نوع أحسن " فـيليبس " ماركـة يُحسد من يمتـلك أحد منتجـاتها - في ذلك الوقت - تناولتـه وأدرت المؤشـر يـأتيني صـوت أحـد المذيعين من إحـدى محطات البث الإذاعي .. هادراً :

- اصمدوا ..

أُغير المحطة واستمع إلى أنباء مقتضبة عن سقوط بعض المناطق في أيدي العدو ، وأمر بالانسحاب إلى مواقع أكثر أمنا، تعجب والدي، فقال مباغتاً :

- يبدو أن خططهم لم تكن للهجوم، لقد كانت معدة للانسحاب سلفاً .

يتنهد ، يمد ساقه والدخان يخرج من أنفه بكثافة .. يطلب مني أن أقفل المذياع ..

يتوقف القصف مع بداية الليل .. يسود سكون حذر ، لم يتبق الكثير من الناس في منازلهم ، اتجهوا صوب البحر ، يحملون آلامهم وأوجاعهم وأحيانا أحلامهم بصمت ، يقهرون تمردهم في أعماقهم وهم يرون الدنيا بتقلبها بين الأمل والخيبة ، بين الفرح والحزن ، بين الهزيمة والنصر ، بين التفاؤل والتشاؤم ، بين الظلم والعدل .. ويحسبون نصيبهم الذي حصلوا عليه فيجدونه دوما يأتي من الجانب المظلم من الحياة ، فيعرفون ذواتهم، وهم يسيرون باقتدار نحو البحر، وهم يحملون بأسهم وخوفهم من مستقبل يجردهم من صمودهم فيفقدون الأمل ويتدافعون نحو الهاوية.

أقترب من والدي ورائحة الدخان تكاد تخنقني وأسأله:

- لماذا يا والدي يكون نصيبنا دوماً الهزيمة؟

تفاجأ من سؤالي .. وزاد من شعوره بالتمزق والحيرة - عرفت ذلك من صمته .. لم أشاهده - بسبب الظلام - حاول أن يجيب متسلحاً بخبرته العريضة في الحياة مع مصاعبها منذ بداية الترحال والعيش في هوامش الوطن بعد ضياع بؤرته، وقال :

- قلة التخطيط وعدم معرفة العدو..

يتوقف ليضع عقب السيجارة في منفضة صغيرة من الفخار بجانبه ثم يتابع :

- العدو يعرفنا جيداً ، يعرف لغتنا - عاداتنا - تاريخنا - يستفيد من كل ذلك ونحن ماذا فعلنا ؟ لاشيء - تباكي على الماضي - وصراخ وشجب ودعاية ووهم .. لم نضع هدفاً محدداً لمتابعته - فقدنا القرار في واقعنا واعتمدنا على الآخرين ..

اندهشت من كلام والدي وأثار إعجابي رغم أنه لايمتلك إلا القليل من التعليم ، اكتفى به حين دخل الحياة بائعاً ورأى أن مايعرفه يكفل له الاستمرار في مهنته ، والتعلم من الحياة يثري التجارب ويعطي الإنسان حكمة الأيام فتجعله طافياً على سطح الحياة يعي مايدور حوله لا غارقا فيها فيجهل مايجري له فلا يعرف حقيقة الغير، يخاف منه ويهرب من مواجهته.

جاهد أبي أن يقرب لي المسافة بين مايحصل في حاضرهم وما حصل في الماضي فيقول لي بلهجة المجرب :

- أتذكر مع بداية النكبة في سنة ١٩٤٨ كلام بن جوريون واضعاً هدف اليهود أمام الجميع "علينا أن نحطم التجمعات العربية ونطرد العرب لنحل مكانهم" .. وها نحن يابني نعاني من تنفيذ أهدافهم .. ينتهزون الفرص لتحقيقها . يكرون ثم يفرون ، يراوغون ويأخذون ونحن نشاهدهم فاغري الأفواه - تقهرنا الظروف رغم قدرتنا على النضال ، القهر يابني يكسر الرجال قبل أن تختبرهم المعارك ، كم راح منا نتيجة جهلنا ، أتعرف في دير ياسين وحدها ذبحت عصابة شترن ٢٥٤ من سكانها وأن الفرقة "٨٩ " الصهيونية قد أبادت قرية الدوين بأكملها قرب بحيرة طبرية ، هنا بخان

يونس قـتلوا المئـات سنة ١٩٥٦، شـهـداؤنا في كـل مكان ؛ ألست ترى أن تربتنا تميل إلـى اللون الأحمـر - انظر إلى الطين بـعد الأمطار يخـبـرك عن ارتوائه من الدماء التي جرت على أرضنا - مـاذا أقول لك يابني؟ - مازلت صغيراً وسترى مع امـتداد العمر مايثير تعجبك ومايدفـعك أحيانا إلى حافة اليأس لو بقيت الحالة كما هي .

يتثـاءب بعد ذلك .. أشـعر أن والدي قـد أنهكه التفكيـر وهو يرد على سـؤالي، وتمنيت لو استـمـر لأعرف أكـثر عن وطنـي السليب وعن ضيـاع أرضنا وفقدان الأمان حتى اللحظة التي تكلمنا فيها ، ووالدتي تتابع بصـمت مايجري بيننا ، أستأذن ، بعد ذلك لأمنح والدي فرصة للنوم في هذا الهدوء الذي ساد المكان.

دخلت الغرفة المجاورة وأنا أردد في نفسي مـاسمعته من والدي، وبدت لي الغرفة غريبة والظلام يُقربها من عـهد انقضى زمانه، عهد لايعرف المدينة الحديـثة ، كأنهـا خلية مـعتـمه أوضـريح من عالم القـبور - هجـره سكانه بهياكلهم العظمـية بعد أن ضجروا من سـرمدية تكرار آلاف القصص التي تبعث الملل في النفوس ، وهي تخرج من بين أسنان جـماجم نخرها الزمان بعد أن جفت فـيها الحياة ، تفاجـئني فكرة ، تدخل مسرعة في ذهني فتـبعده عن هواجسه وتجعلـها تتراجع قانطة من مقاومة هذه الغـازية الجريئة في هذا السكون الغيـر متـوقع - أن أقـوم بزيارة " دعـاء " في المستـشـفى - فكرة مجنونة لكنها احـتلت كل عقلي وأخذتني إليها ، ألحت عليّ فـأضمرت أن أقوم بها في اليوم التالي ..

نهض الجميع على أصوات مكبرات الصـوت في الصباح تدعو الرجال

والشباب إلى الخروج إلى ساحة الملعب الكبير أمام مستشفى ناصر .. كانت الأصوات تكرر النداء بصيغة الأمر، وبلكنة بعيدة عن اللهجة العربية الدارجة في خان يونس أوغيرها .. فتح والدي باب البيت لم يشاهد أحداً خارجه فأغلقه وناداني :

- عادل .. عادل ..

وكان يرتدي ملابس الخروج وصفرة الموت تعلو وجهه من الخوف ومن قلة الأكل والقلق .. تبادلنا النظرات ونحن نقف في فناء البيت ، والدتي يحيط بها إخوتي ، تقف أمام الغرفة التي كانت تنام فيها معهم ، لتستطلع مايجرى.. يعود الصوت بلهجته الأجنبية مهدداً هذه المرة بأن تفتيشاً سيجري ومن لايخرج سيتعرض للقتل ، ارتجفت أقدام والدتي وهي تسمع ذلك واحتضنت إخوتي بذراعيها وهي تكاد تبكي من الخوف علينا .. فتح والدي الباب وخرجنا .. ألجمها ماسمعته ، فلم تندفع نحونا واكتفت بالنحيب الصامت، ثم تقدمت نحو الباب وأغلقته.

مشينا مع عدد قليل من الرجال هم ماتبقوا في منازلهم يتجهون إلى الملعب ، نقابل بعض المصفحات والدبابات على جانبي الطريق ، وبعض الجنود يتصايحون مبتهجين وحين يقترب منهم بعض الرجال من سكان المدينة يصرخ بعضهم :

- " جيش الشقيري خلاص مافيش "

يضحك بعضهم والبعض الآخر يشتم بلهجة عربية صحيحة .. أشاهد بعض الجثث على جانبي الطريق ، أمر بواحدة لامرأة عجوز تحتضن لفة من الملابس ، أشعر بالحزن والامتعاض ، وعلى بعد منها جثة رجل وبجانبه

ساقه المبتوره ، أشعر بالغثيان .. والدي يبسمل ويحوقل دون أن يلتفت إليّ.. تمنيت لو أستطيع أن أواريهما التراب ، فللأموات حرمتهم .. أمر أمام مستشفى ناصر - ألتفت إليه - لكن مشاعري لم تتجه نحو "دعاء" التي ترقد فيه - فإن ماشاهدته من مظاهر الموت الوحشية أسكتها فلم تناوشني .. أواصل سيري إلى بوابة الملعب مع الباقين، وحين دخلنا تفاجأنا .. بأعداد الناس من الرجال الموجودين داخل أسوار الملعب والكل جالس .. يقابلنا بعض الجنود ببنادقهم الرشاشة الحديثة .. يطلبون منا بغطرسة المنتصر الجلوس في أول مكان أمام من سبقونا من الرجال.. وما أن يجلس فوج من القادمين حتى تبدأ زخات من الرصاص تتطاير في الهواء، لترعب الجميع وتذكرهم بالهزيمة - يدور حديث هامس بين أبي وأحد الرجال من معارفه يجلس خلفه - يعرف أن الإسرائليين جاءوا إليهم ليلا وأجبروهم على ترك أماكنهم قرب البحر والتوجه إلى الاستاد الرياضي كما أطلقوا عليه - لم يكن البحر بعيداً فقد كان على مسافة لاتتعدى الكيلو متر .. هددوهم بالقتل إذا لم يتمثلوا لأوامرهم ، ساعدهم على ذلك مجيء رئيس البلدية الذي أجبروه أن يأتي معهم ليخاطب المواطنين ويطلب منهم أن يتجهوا إلى الملعب تجنباً للمذابح التي يتذكرها الكثيرون من سكان خان يونس قبل إحدى عشر سنة تقريباً ، فانصاع الرجال وتركوا بقية أفراد عائلاتهم يواجهون الواقع بمفردهم أويعودون إلى منازلهم وبقي البعض .. يتلقطون أخبار ماقد يحدث ثم يقررون ماذا سيفعلون؟.

استمر وصول الرجال والشباب والشمس تصعد في السماء والحرارة تزداد طردياً مع ارتفاعها، والجالسون تتقاذفهم الأفكار والوساوس ، تكاد

أجسادهم تيبس من كثرة مارشحت من العرق من حرارة الجو ومن حرارة التفكير والقلق ، بقي الوضع على حاله ، زخات الرصاص ، زعيق مكبرات الصوت وهي تأمر المواطنين الذكور بالقدوم إلى المكان وتتوعد من يتأخر - حتى حل وقت العصر - بدأت عملية فرز كبيرة أساسها السن فوق الخامسة عشرة حتى الخمسين من العمر، وانضم إليهم من يبدو في مظهره ضمن التحديد عشوائياً دون التحقق بالنظر إلى البطاقات الشخصية، أوالهوية كما يُطلق عليها المواطنون في قطاع غزة - وانقسم الجمع الكبير إلى قسمين، قسم بأعداد كبيرة بدأ يصعد إلى حافلات كثيرة جلبوها من شركة الباصات أومن غيرها في الأرض المحتلة وكانت تقف في طابور كبير على امتداد البصر كأنه بلا نهاية ، أما القسم الآخر وهو الأقل فقد رجع إلى أهله وبينهم والدي الذي ودّعني وهو حزين مكلوم النفس، ولولا أسرتنا التي تنتظره لفضل أن يزج بنفسه مع الباقين وهم في الحافلات . لايعرفون إلى أين ؟ .. يعود إلى البيت .. تستقبله والدتي ويحيط بهما إخوتي .. سألته عني .. قال :

- أخذوه

قالت بانقباض وهلع :

- إلى أين ؟

أجاب وهو يبكي :

- لاأعرف .. لاأعرف .

وبدا كأنه ذئب يعوي لايقوى على اللحاق بالقطيع أمامه .. هكذا علمت فيما بعد

يقطع طابور الحافلات الشوارع والطرق ، وفي كل حافلة ثلاثة جنود واحد في الأمام وآخر في خلف الحافلة والثالث في وسطها، يضربون كل من يرفع رأسه لكي يعرف أين تتجه حافلته مع الباقيات بكعوب بنادقهم.. خُيل لي أن الطريق لن ينتهي

في حلقي غصة حزن على فراق الأهل ، وفي قلبي قلق على نفسي ولوعة على "دعاء" التي لم تفارق تفكيري رغم ما أنا عليه من ضياع ، وشقاء ، الحافلات تسير خلف بعضها تحت ستار الليل والآلاف داخلها كل يحتضن همومه وهو يتجه إلى المجهول .. في مصيدة الحياة مابين سدي الماضي ولحمة الواقع - لايعرف متى تحل ذروة المأساة لينحدر نحو المصير المحتوم ..

تتوقف السيارات ويبدأ مخاضها بعد وعثاء السفر ، يخرج من أرحامها شيوخ وشبان طحنتهم ظروفهم وسط هياج وصخب الجنود الذين استقبلوهم بالضرب والركل كيفما جاء على أجسادهم والظلام يضخم المخاوف داخل المتزاحمين من هول المفاجأة ، يسوقونهم جنود العدو أمامهم على ضوء بطاريات تلقي ضوءاً مستقيما يسمح للقرابين أن تسير في دربها المشؤوم ويأمرونهم دخول أماكن تحيط بها الأسلاك الشائكة .

أكاد أن أسقط على الأرض بعد أن تلقيت ضربة على رأسي أفقدتني توازني ، ولولا تلاحم الأجساد حولي الذي دفعني إلى دخول المنطقة المحاطة بالسياج العريض لداستني الأقدام ، وكلما دخل فوج تجمع مع الباقين وسط الفزع والذهول .. والأوامر تتلى عليهم بأن يجلسوا في أماكنهم .. تواصل حشر الرجال داخل الأسوار الشائكة معظم ساعات

الليل ، وعند الغلس بدأت معالم المكان تتضح .. مساحة فسيحة من الصحراء تحيط بأرض المعتقل المفتوحة على الفضاء يظهر ضوء الصباح بالتدريج شيئاً فشيئاً مكفهراً كئيباً .. يهمس أحد الرجال لمن هم بجانبه بعد أن عرف المكان - في زمن نشاط الفدائيين بزعامة الشهيد مصطفى حافظ الذي اغتالته الموساد الإسرائيلية - وقال بصوت منخفض :

- نحن قرب بئر السبع التي تقع في منطقة النقب الصحراوية جنوب فلسطين ..

تجولت ببصري حسب ماتسمح به جلستي ، أتفحص جزءاً من وطني قرأت عنه لكنني لم أشاهده من قبل ، فاضطرب جسدي ونظرت إلى نفسي ثم إلى من هم حولي ، اكتشفت أن الغبار يغطيني ويغطيهم جميعاً وكأنهم خارجون من أجداثهم بعد موت قصير .

تسطع الشمس ويبدأ جحيم الصحراء ونحن في العراء لايحمينا من وهج الشمس شيء .. وما أن تأخذ الشمس مكانها فوق الأفق - حتى يُطلب من الجميع الوقوف - لتحية علم " إسرائيل " تباطأ البعض . شاهدت أن في المكان بعض الجنود والضباط المصريين وكانوا بلباسهم العسكري الذي يعلوه الغبار ويلتصق به التراب ، وحين رأى أحد الجنود الإسرائليين بعض المتباطئين صرخ بجنون وبلغة عربية سليمة :

- قفوا ياكلاب . هذا علم إسرائيل وليس علمكم .

أحسست أن هذا الجندي قد ذبحني بسكين تليم .. وقف الجميع ذابلون مقهورون ماعدا ضابط مصري برتبة رائد ، وعرفت ذلك من شعار النسر الذي مازال على كتفه وحين رآه الجندي أسرع إليه ، لأن الضابط المصري

كـان قريبـاً من السـور الشـائك ، جذبه مـن كمـه ، لكن الضـابط لم يقف وحـاول الجندي أن يضربه لـكنه أمسك بيـده عند ذلك أسـرع بعض الجنود ومعهم ضابط إلى الضابط المصري وانهالوا عليه ضرباً. لكنه لم يقف فأشار في نفوس المعـتقلين الآخرين روح التـمرد فأحدثوا ضـجيجاً تبـعه جلوس عاصف أثار الغـبار من التـراب الصحـراوي الناعم في مكانهم، عندئذ بدأ الرصـاص غزيراً فـوق الرؤوس ، ثم اختـار جنود العدو بعض الأفـراد بلا تمييز من أركـان المعتقل وأوقفوهم عـلى مرأى من الجميع وأعدمـوهم رمياً بالرصـاص بدم بارد . لم أنـس ذلك وانطبع في ذهـني ، وأنا أتقــدم حين أجبرني نفس الجنود مع بعض الرجال المعتقلين على حمل المقتولين الشهداء بعيداً عن مكان المعتـقل لنحفر لهم قبوراً ندفنهم فيهـا ، حتى يردعوا الباقين فلا يـ ، أحد منهم بعد ذلك ..

مضت عدة أسابيع .. وفي فجر آخر يوم من آخر أسبوع نهض المعتقلون على أصوات طلقات الرشاشات المتواصلة وأوجسوا خيفة في أنفسهم وأن إعدامـا جمـاعيـاً سيـتم. فتلاصـقوا كل بجـانب رفيـقه بعـد أن نمت بينهم صداقات القهر والبؤس التي تجمع القلوب الحزينة في وقت الهزيمة.

وبعد دقـائق تصمت البنادق والرشـاشات ويسود صمت قلق ، تتـقدم بعده شاحنات مملوءة بالخبز . يبـدأ جنود بملابس زرقاء يوزعونه على جميع المعتـقلين ، تساءلت العيـون .. والأيادي تتسلم رغيـفها ولما انتـهى التوزيع طلب ضـابط إسرائيـلي كبـير من جنـوده أن ينظموا صـعـود المعتـقلين إلى الشاحنات التي كـانت تحمل الخبـز، حسب وقوفـهم دون انتخاب أوتمييـز، شعرت أنني سَـخْلَةُ في قطيع من الأغنام يُساق بعد تسمـينه إلى السلخانة ،

تعجبت دون أن أعرف أين سينقلونني مع غيري في هذه الشاحنات الكبيرة وأنا أحمل رغيفاً من الخبز الطويل كان الجميع في حالة من الذهول متجهمي الوجوه وقد اتسخت ملابسهم التي بقيت على أجسادهم أسابيع مضت وهم ينامون على أرض جرداء بترابها الناعم والسماء غطاء لهم مابين لهيب شمس النهار وزمهرير ليل الصحراء .. تحركت السيارات وأخذت تتجه نحو الجنوب .. ساعات طويلة مابين توقف وانطلاق .. كانت الشاحنات مغطاة بقماش سميك كالذي تصنع منه الخيام - لم يسمح لأحد بالنزول أو التلصص برفع الغطاء ليشاهد أي علامة في الطريق ترشده وتهدىء من روع الجميع الذين تزدحم بهم الشاحنات ، حتى أن البعض حين شعروا بالرغبة في التبول بعد عذاب الحصر، اضطروا إلى التبول في داخل الشاحنة أو على جوانبها ولما تشبعت أرضية الشاحنة وجوانب الغطاء انتشرت رائحة البول الكريهة، أصبحت السيارة الضخمة مرحاضاً كبيرا يتحرك على عجلات ، لكن أحداً لم يتأفف حتى من الذين لم يتبولوا،.تباطأت السيارة ثم توقفت مع غيرها من الشاحنات وبدأ الجنود يصيحون وهم يفكون رباط الغطاء المحكم ويسمحون للمعتقلين أن ينزلوا شريطة أن لايبتعدوا - كانت أرجل شبه مشلولة بسبب التنميل من طول ساعات الجلوس في وضع واحد

كان الوقت أصيلاً وعرفت من غيري من الرجال أننا في القنطرة شرق على ضفاف قناة السويس .. شعرت بعدها بشيء من الراحة والطمأنينة - واستبشرت مع الآخرين خيراً بعد خوف من هولوكست جماعي في أطراف الصحراء..

شعرت بالجوع الشديد بدأت أقضم رغيفي الذي أصبح صلباً ، توقفت حين تذكرت أنني لاأملك ماءاً فإن ذلك سيزيد من عطشي وجفاف فمي .. الرجال مابين جالس ومستلق قرب السيارات والجنود يشربون ويتناولون طعامهم الخفيف وهم ينظرون إلينا ببلاهة دون اهتمام.. تصل بعض القوارب متوسطة الحجم وتنتصب طاولة كبيرة على ضفة القناة قريباً من مرسى صغير من الأخشاب يبدو أنه أقيم على عجل .

بدأ موظفون تابعون للصليب الأحمر يكتبون أسماء من يستقل القوارب منا واصلت عبورها إلى الضفة الأخرى . تكرر ذلك إلى أن انتهت عملية العبور مع بداية الليل ، لم يكن عدد المُرحلين كبيراً كما كان في معتقل بئر السبع ولكنه كان بالمئات ، رحب بنا بعض المصريين الذين كانوا في استقبالنا وهم يواسوننا رغم جراحهم النفسية مما حصل - لكنهم أبناء حضارة عريقة لاتكسرهم تصاريف الزمان - يسترجعون توازنهم ويبدأون من جديد . هكذا بدا الموقف لي وأنا أسير مع رفاق من الكهول والشباب والشيوخ يتقدمهم شباب المصريين الذين استقبلوهم وقاموا بتوزيعهم مابين المدارس والمساجد القريبة .. لم يكن هناك استعداد كبير.. لأن عملية الترحيل فاجأت المسؤولين المصريين ، اعتذر الموظف المسؤول ووعد أن يوفر مانحتاجه في أقرب وقت .. وقال :

- يمكنكم أن تذهبوا إلى المزارع القريبة ، فتشوا هناك عما تبقى من الخضار والثمار لكن لاتتوغلوا كثيراً فأنتم تعرفون ظروف الطوارىء في وقت الحروب"

مشيت مع بعض الشباب بحذر والظلام يخيم على المزارع ومايحيط

بها.. أيـدينا تبحث بين مـزروعات من الخيـار والكوسا والطمـاطم - لكن الموجود قليل ذابل - إلا أننا التهمنا مـاطالته أيدينا لنرطب حلوقنا، فالمياه لم تكن متوفرة لأن القنطرة غرب كانت خالية من معظم سكانها، والموجودون هم رجـال الدفاع المدني وبعـض الجنود المصريين الذين تجـمـعوا يلملمـون مايتـيح لهم المقاومـة في المستقـبل القريب ، عدت إلـى داخل المدرسة التي سأرتاح فيها ، دخلت أحد الفصـول ، تمددت على بعض المقاعد الصغيرة ، وأنا أتمنى أن تغـمض عيـناي ، لم أصـدق مـاحـصل أن أكـون من ضـمن الموجودين على أرض مصر كـأنني أعيش في حالة هروب دائم من ظروفي الغريبة التي أحاطتني - فكرت في الأهل تـخيلتهم في حـزنهم ، في تلقط أخباري، في رحيلي المفاجىء عنهم، في تسارع الأحداث التي تلج حياتى ، التنقلات مـابين خان يونس وبئر السبع والـقنطرة ، التغيرات السـريعة التي حدثت لي أسقطت جزءاً من أحلامي في حياتي التي تمزقت مابين الأمل في البـقـاء ومابين المـوت المفاجىء فـي أيامي المتـتابعـة داخل المعـتـقل وداخل الشاحنة ، إلى رقدتـي على مقاعد هجرها طلابهـا بعيداً ليجـتروا ذكرياتهم في مكانهم الجديد وهـم يحلمون بالعودة إلى نفس الحـجرة التي تعيش معي مع مشاعري مع أفكاري في ظروف لاتختلف كثيراً عن ظروفهم .

تذكرت كل ذلك وأنا مازلت أنتظر تأشيرة دخول أرض الوطن، غريبا يحمل وثيقـة سفره على كفه داخل صـالة مطار غزة الدولى، لاأستطيع أن أنتشل نفـسي من أنني أعيش في وهـم كـبيـر رغماً عنى، وشـعور بالضـياع داخل قلبي المرتجف مابين العيش داخل الذكريات ومابين انتظار قد يطول ، يزيد من تعاسة الأيام المقبلة لم أفقـد السيطرة على انفعالاتي وهي تضطرب

مابين الألم والحيرة وحلم العيش على أرض الوطن في بداية عودة بُعَيد ترحال طويل، حملته أحلام بعد انطلاق الحكم الذاتي ، وفي دفقات متتالية لأحاسيس تمرد داخلي على واقعي المتعب على تخوم الوطن دون السماح لي أن أعيش فيه . قد أكون الآن ليس ابن ساعتي الراهنة بقدر ماأكون ابناً لظروف أحاطت بي فشكلتني حسب إرادتها لكنها لم تستطع أن تجعلني أنغمس في حالة من الهروب بعيدا عن حلم العودة، قبل أن يهزمني تيار التكاسل والموت والعدم أتساءل :

- هل يحتاج المرء لدخول بيته إلى إذن من الآخرين ؟

أرنو ببصري نحو البوابة الكبيرة، يشرئب عنقي باحثاً عن أخي الذي طمأنني حين اتصلت به بالهاتف بأنه يتابع إجراءات دخولي وسيكون داخل المطار ، يقابل المسؤولين ومعه تصريحاً بمنحي تأشيره دخول، وبعدها يكون العبور إلى أرض الوطن من بوابته الجديدة في رفح إلى خان يونس التي أعود إليها بعد الخروج الطويل في حالة تشهي بلا إحباط ■

يناير ١٩٩٩

احتمال

تحسس وجهه بيده وهو ينظر في المرآه ، تأمل التجاعيد حول عينيه وأسفل ذقنه بعينيه الذابلتين المحمرتين ، خصلة من شعره الرمادي الخفيف تتدلى على جبينه المتغضن ، شفتاه مسترخيتان ، أسنع الوجنتين .. خال نفسه - كوزيمورو - الشهير في نوتردام - وكاد يشعر بالغيرة منه لأنه قد يكون أكثر جمالاً من صورته التي تعكسها المرآه ، بعض شعيرات ثائرة تقف على سهول رأسه المتحدرة إلى عنقه .. تثاءب فانزلقت دمعة حارة - ألهبت وجنته اليمني - تركها تنساب - لتستقر في أخدود صغير على جانب فمه بشفتيه الغليظتين.

لم يفطن إلى الماء الساخن الذي ينزل من "الدُش" الذي فتحه قبل قليل استعداداً للاستحمام - قبل أن يخرج بعد قيلولة غسلت جسده بعرق غزير، كان مشغولا بما تعكسه المرآة ، يتابع لعنة الزمن على صفحة وجهه وهو يعيش ذلك الحرمان الكبير داخل مصيدة الحياة المستعصية عليه ، فلم يستطع تحطيمها لينطلق إلى أجواء الطموح وفضاءات الرغبة داخل وجوده، لكي يخلد ما يقوم به على امتداد المسافة مابين لحظة الميلاد وفجيعة الممات ، يشعر أحيانا أن طاحونة الحياة السرمدية تحتضنه ، تعصره ، لايكاد يرى انعكاس الضوء على الأشياء أمامه ، فيكتنفه إحساس بتفاهة مايقوم به وهو يتعلق بغصن شجرة الوجود العظيمة .. لم يستطع نسيان تجربته الأليمة على سطح سفينة تجره فوق الأمواج بعيداً عن مكانه القريب من حدود أرضه

المحتلة . يستنشق عبير ترابها ، تنقله النسمات المهاجرة بحيطة وحذر عبر مساربها الخفية عن أعين العدو خوفاً من أن يصادرها فلا تصل إليه ، كثيراً ماكان يجتر أفكاره عن " الماضي " الحاضر أمامه داخل عقله المجهد في لحظات من ضجيج الحياة بعيدا عن الآخرين ، وهو يجلس تحت شجرة أرز امتدت أغصانها فمنحته ظلالها في بعض أوقات جحيم عمره ، غالباً ماكان يعتبر نفسه مجرد مسمار وسط ماكينة الحياة الضخمة وصرير دوران عجلاتها يحطم الهدوء المتبقي داخل أحاسيسه الناعمة المرهفة ..

طالت وقفته ، زحف الماء الساخن على أرضية الحمام فأحس به يغمر قدميه - شعر بشيء من الحذر والراحة والماء يحتضن قدميه المتعبتين وهو يتابع شريط الماضي الذي لم يتوقف .. كم كانت محاولاته لسبر غور حقيقة الزيارات المتكررة لمشاعر ظن أنها استكانت في هامش شعوره دون أن يصل إلى فهم كنهها فهماً مطلقا يريحه منها قليلاً لينتبه إلى واقعه خرج شوقي بعد أن أنهى حمامه الساخن وفي نيته أن يقابل صديقه عمر داخل إحدى مقاهي المدينة التي تعود الجلوس فيها.

فضّل أن يمشي المسافة على قدمية مابين بيته والمقهى - ليمر في طريقه على عمته الطاعنة في السن وهي الوحيدة التي مازالت تتمتع بالحياة من بين جميع أفراد عائلته الذين حصدهم منجل حارس الموت في حديقة الأعمار وجدها فرصة أن يكمل حواراً بدأه مع نفسه وهو تائه في ضياع مع الماضي حتى بات لا فرق بينه وبين الحاضر أنساه التفكير في مستقبل الأيام المتبقية متسائلاً :

- هل الحياة اجترار ذكريات عبرت في سالف العمر ؟ إن التقدم في

العمر مع عدم الاستقرار جحيم أكتوي به ، أود لو أتوقف عند زمن معين في رحلة العمر .. المستحيل ، متى كان مجسداً؟ لأمسكه بقبضتي ، قد أتوقف خارج الزمن ، فأهرب من واقعي عبر الخيال وأنا انتظر نهاية اللعبة في هذا الوجود الممتد عميقا في درب الدهور ، وحارس الموت يفتش في ضباب الغموض داخل الغابة البشرية دون ملل . يدفعه شوق متزايد لصب مزيد من الحزن والشقاء على رؤوس البشر وهم يتساءلون . كيف يستطيع أن يبتدع كل هذه الأساليب؟ لنسج المأساة بأنماط جديدة تثير إعجاب سعاة العالم الآخر ، فيمنحونه وساما هو دائماً بلون دم الضحية الجديدة ، وهم يلتهمون وجبة جديدة من القرابين.

يعج المقهى برواده - كان عمر يجلس في ركن قريب من الشارع اعتاد أن يكون فيه مع شوقي صديق عمره منذ أيام الدراسة في الثانوية والجامعة ، ربطهما التخصص في دراسة التاريخ ، عن حب وقناعة ، وكان سوق الوظائف في ذلك الوقت يتسع لكل التخصصات .

يصل شوقي ويشعر بالغبطة حين يرى صديقه يقبع في نفس المكان المحبب لديهما بعيداً عن صخب الآخرين الذين يلعبون "الدومينو" أو "الطاولة" بأحجارها المعهودة و "زهرها المكعب" .. إضافة إلى الصاخبين وهم يلعبون الكوتشينة" .. يطلب عمر من النادل بعض القهوة التركي مشروبهما المفضل .. يمر أحد باعة الكتب المتجولين - ويقف أمامهما فقد تعودا أن يشتريا منه كلما وجدا جديداً لديه .. وبالذات لمؤلفين مثل يوسف إدريس ، جبرا إبراهيم جبرا ، إميل حبيبي أوغيرهم من الكتاب المجددين الذين يضعون الإصبع على الجرح ويلمسون هموم ومشكلات يبتعد عنها

الآخرون لسبب أولآخر ، وكان هذا رأي شوقي الذي يشاركه عمر بعضا منه . يضع البائع حقيبته المملوءة بالروايات وكتب المعرفة المختلفة ، يسترعي انتباه أحمد كتاب بعنوان " غرائب المحاكمات " يشتريه ، أخذ يتصفحه على مهل وشوقي يتابعه .. وهو يستغرب ويتساءل في داخله ، لماذا هذا الاختيار؟ وهو البعيد عن القانون ودراسته ، لاحظ أن صديقه قد ظهرت عليه علامات الدهشة وهو يتابع بعينيه إحدى الصفحات التي أوقفته وجذبت اهتمامه ، بادره شوقي قائلاً :

- هل هناك شيء مثير ؟

رفع عمر رأسه قائلاً :

- ليس معقولاً . إنه أمر غريب جداً ؟

أثارت العبارات فضول شوقي فقال مستفسراً :

- ماهذا الغريب الغير معقول؟

- هل تحب أن أقرأ لك .

قالها بشيء من الحماس وكأنه يحثه على الإصغاء .

- تفضل .. ولكن بسرعة قبل أن يأتي النادل لأنني أحب أن أرتشف القهوة وأنا خالي الذهن .. لاأفكر بشيء حتى استمتع بها .

- لن يستغرق ذلك طويلاً .

- إني منصت لك وأرجو أن يثير اهتمامي .

بدأ عمر يقرأ بصوت فيه بعض الانفعال الذي تولده المفاجأة :

- بدأت الحرب العالمية الأولى ، وبدأت المعاناة في منطقة الشام وباقي المناطق المحيطة . هكذا قُدر لهذا المكان أن يكون دوما مسرحاً للحروب

والتجارب القاسية والظلم الذي يدفع إلى التمرد والثورة على كل ماهو اعتيادي مألوف؟ .. توقف عمر ونظر إلى صديقه ليتأكد أنه يتابعه ، وهنا قال له شوقي محتجاً :

– ليس هناك مايثير الدهشة فهذه أمور قرأنا عنها الكثير .. إذا كان هناك جديد فتابع وإلا ..

يسرع عمر فيقول :

– كان ماقرأته مقدمة وعليك أن تنصت بانتباه إلى مايلي .

وأخذ يقرأ :

– القاعه في إحدى المحاكم مكتظة بالحضور ، في قفص الاتهام رجل وامرأه يبدو عليها إمارات القوة أكثر من الرجل القابع بجانبها ، يبدأ المدعي العام بموجز عن قضيتهما قائلاً :

– إنكما متهمين بأنكما ولمدة سبعة أشهر تأكلان لحوم أطفال جيرانكم في الحي الذي تقيمان فيه ..

يقاطعه شوقي قائلاً :

– إنه موضوع غريب ومثير ، أرجوك أن تواصل ولتذهب القهوة إلى الجحيم ..

يواصل عمر وقد رانت عليه علامات التأثر والاهتمام :

– لم تتأثر المرأة ، بل نهضت قائلة بصوت يشبه صوت عجوز شمطاء في جوقة من ساحرات الشر في ألف ليلة وليلة – مع أنها بعيدة عن هذه المرحلة من أرزل العمر ..

– " هل جربتم الجوع ياسادة ؟

القاضي يضرب الطاولة بمطرقة صغيرة ليوقف بعض أصوات الاحتجاج والصراخ التي نادت بقتل المرأة والرجل بعد سماع التهمة ثم يردف قائلا:

- كيف أقدمتما على هذا العمل؟

ترد المرأة بحدة :

- جُعنا - احتملنا الجوع إلى حد لايطاق - فاتفقنا على أكل القطط - وبقينا نصطادها ونأكلها إلى أن نفدت من حينا - فبدأنا بالكلاب ونفدت أيضا - وكان لحمها أطيب وأشهى من لحم الهررة - وعندها جربنا أكل لحوم البشر حين عضنا الجوع مرة أخرى ..

القاضي :

- بمن بدأتما أولا؟

- بامرأة عجوز خنقناها وطبخناها في قدر كبير ، إلا أننا قضينا ليلتنا نتقيأ لأن لحمها كان صلباً ودسماً ، ثم ذبحنا بعد ذلك ولدا صغيراً فوجدنا لحمه في غاية اللذة والجودة ..

هياج في المحكمة ووعيد بقتلهما ..

تدخل القاضي طالبا السكوت ثم قال :

- كيف كنتما تصطادان الأطفال؟

- بواسطة ولدنا ؛ كان يأتي كل يوم بواحد بقصد اللعب معه .. فنخنقه ونأكله وندفن عظامه في هوة حفرناها داخل بيتنا .

- كم ولداً أكلتم ؟

- لاأذكرهم تماما ولكن يمكن إحصاؤهم من عدد الجماجم المدفونة .

قالت ذلك وزوجها يحدجها بعينيه وهي تهم بالجلوس ..

أرسل القاضي هيئة تفتيشية بعد أن أجل المحاكمة . فوجدت مائة وأربعين جمجمة بينها جمجمة العجوز ، وبعد إتمام المحاكمة حكم عليهما بالإعدام بأمر علي إحسان باشا قائد الجيش السادس في الشام فسيقا إلى المشنقة ، وتألبت حولهما الجموع وهاجت صارخة متوعده بأقصى أشكال الموت لولدهما الذي فر هارباً دون أن يعثروا عليه .. وكانت بين الجموع امرأة شقت الصفوف وتقدمت إليهما مولولة نائحة ، وجعلت تنهش أرجلهما بأسنانها وحين انتزعوها بقوة سألوها :

- لماذا تفعلين ذلك؟

فقالت :

- لقد أكلا ثلاثة من أولادى..

طلب شوقي من عمر أن يتوقف فقد شعر برغبة في التقيؤ . بصق على الأرض وحالة الغثيان تزداد في باطنه .. نظر إليه عمر وعليه أيضاً علامات التقزز والاشمئزاز وقال :

- ألا اللعنة على الحروب ! لهذا الحد يتجرد البشر من إنسانيتهم !

رد شوقي معلقا بلهجة تمتلىء بالعتاب :

- إنك لم تجرب الجوع ، فقد كنت هنا داخل الوطن الذي لم يبخل عليك مهما كانت الظروف .. أما أنا فقد كنت هناك قبل أن أرجع وأعيش بينكم ..

- لاتضع اللوم على الناس العاديين ، فإن اللوم يجب أن يكون للذي تسبب في ذلك ..

قاطعه عمر :

- لاأفهم .. ماذا تعنى؟.

- أتذكر ماحدث في بيروت سنة ١٩٨٢ - لقد كنت هناك مع المناضلين الذين طاردتهم الظروف فارتحلوا عبر الحدود ، وأنت تعرف أنني كما أخبرتك التحقت بأحد الفصائل بعد أن أُبعدتُ في زمن الانتكاسة عن الوطن ..

تدخل عمر قائلاً :

- ولكن ماعلاقة ذلك بما قرأته؟

- سأخبرك فلا تستعجل .. عندما طال حصار بيروت ، نفدت المؤن ، لم يتوقع الكثيرون أن يطول الحصار ، وحينها ظهرت المشكلة للناس العاديين ولنا المتخندقين قرب حدود التماس مع العدو الذي يحاصرنا في بيروت ، والجثث حولنا في كل مكان ، لقد كان القصف شديداً بلارحمة، لم يهتم الناس حين آلمهم الجوع بالموت فخرجوا من "أجداثهم" لايختلفون كثيراً عن الموتى أمام أعينهم والفرق الوحيد أنهم يتحركون والموتى صامتون لاحركة في رقدتهم السرمدية .. انطلقت الفتاوى ، وأصابت بعض الفتيا هوى في الناس حين أباحت أكل الموتى فانطلقوا كالذئاب الجائعة يتقضقضون .. تسمع صوتهم وهم يسحبون الجثث فتظنه العواء ، وهم يدخلون روائغ المدينة وطرقاتها الضيقة المتعرجة .. فكان يُسمع - بعد ذلك - صوت تكسير العظام ونشيش اللحم يتبعه..

- تباً لوسائل الإعلام ؛ إنها تخفي أحيانًا بعض الحقائق .

قالها عمر، متأففاً حينها رمقه صديقه متابعاً القول والأسى بادياً عليه :

- لقد شاهدت هناك بعض الأطفال وهم يبحثون في فضلات الناس عن شيء يأكلونه .

قاطعه عمر قائلا :

- كفى أرجوك إن بدني يقشعر ومعدتي تكاد تقذف مافيها .

نهض طالباً من شوقي أن يتركا المكان على وعد بلقاء آخر في عطلة نهاية الأسبوع وافترقا ، عمر بيده الكتاب الذي اشتراه ، وشوقي مع ذكرياته التي لم يستطع أن يدجنها فبقيت تتمرد عليه وتهاجمه بشراسة وهو يعقد مقارناته التي تثيرها بين زمنها والزمن الذي يحاول أن يسحبه منها .. لكنها بقيت تأسره في سجنها وتدفعه إلى التماهي معها ليفقد الإحساس ولو مؤقتا بما يجري أمام عينيه فتجبره على أن يشاهد الدنيا من خلفها وكأنه في خريف دائم .. يرى تساقط أوراق الشجر وذبولها مع أيام العمر وهي تهوي قربها بلا وداع ، تأخذ بعضاً من فورة العاطفة ودفئها فتغدو فاترة ضعيفة في جنبات صدره إلا من صدى بعيد لشآبيب مازالت تروي بعضها في زمن يبابه .. تحت شمس نهاره المحرقة تجفف ماتبقى من جذور حب الحياة ومافيها .. مريرة تلك اللحظات التي يصارع فيها الذكريات المتيقظة دوماً .. تفقده توازنه فيبدو له كل شيء وقد تخلى عن صورته الحقيقية فيعيش وهم السراب بكل مافيه من خداع لايعطيه فرصة لالتقاط أنفاسه وهو يعدو ليلحق به ويستمر في ذلك حتى لحظة المخاض التي تسبق .. اكتشاف الحقيقة التي تكون دوماً قبل الموت الذي يجسد معه الحقيقة الوحيدة الأليمة وهو يسحب معه جثة عاشت حاضرها والماضي يغلفها ، تحت تراب فقد رطوبته سريعاً فانهال بقوة يدفنها لتستقر فوق الحصى البارد وهو يضغط

عليها بقوته الغاشمة لتلتصق بجوف الأرض التي تحتضن كل شيء في أحشائها دون كلل أو شكوى ، فتهضمه ويذوب فيها وينصهر - ليعطي الحياة إلى القاطنين فوقها سواء أكانوا يشبهون الثاوين تحتها أم يبتعدون في صورة مختلفة أكثر إشراقا ، بلا أنين مسموع حزناً وندماً على مافات من زمن لم يترك أثاراً عميقة على جدران الحياة المتصدعة وهي لاتحتمل مقاومة أية هزة مفاجئة داخل الواقع المرير.

يصل شوقي بيته والسكون يناديه وهو يزحف من أعماق سحيقة لعالم غريب ، تتملكه رغبته ، رغم أن عينيه تكاد تقفلها الجفون ، يقاوم نعاسه لكي يتيح لتلك الرغبة أن تتعملق ، لتُذهب عنه أحزانه الراجفة ، والعمر يفلت منه داخل خان يونس بعد أن عاد إليها حين منحته اتفاقات أوسلو فرصة لم يتوقعها ،كما ضاع منه الكثير في غربة المنافي ، مابين شتيت مشاعر تجاذبته وسط رغباته في البقاء أو الفناء - لم يستطع القضاء على ذلك الصراع المكتوم ، والواقع بكوابيسه يغلق منافذ تمرده ليبقى حبيساً داخل ليل فقد قمره خلف تلال أمواج بحر طام قرب الشوطىء بمزارعها القريبة.

مازالت الذكريات تجرفه .. يجترها .. تنقله عبر مسافات تلاشت أمامه مابين بقاع الأرض المختلفة وهو يبحث عن تلك الرقعة الصغيرة الكبيرة ، مابين خطوط الطول ودوائر العرض التي مزجت أحلام الماضي والحاضر ، جعلته يلهث وراء مستقبل بهيم رسمته أعاصير مأساة تمت عبر الحدود ، ومأساة ترسمها في الخفاء أياد تظهر على "شاشات الفضاء" داخل قاعات فخمة - تتصافح - تعقد صفقات مشبوهة ووعود تترى فوق الأوراق المبتلة

بصديد الجرح الغائر في القدس المحتلة .. مازال يبحث ، وحين يصل إليها يصرخ .. يضنيه النحيب ولامجيب - هل انتهى كل شيء ؟ هل تمت الصفقة ؟ تومض البقعة الصغيرة الكبيرة ، تحرك في أعماقه شيء ساخن ، كأنه جنين في أحشائه العقيمة ، يلح عليه أن يخرج .. يتمرد بصمت كي يفعل .. يضغط على بطنه .. يتأوه تخرج زفراته .. وينادي :

- يافا .. يافا .. هل تبقين في حضن الغاصب تنتظرين ؟ هل أرضى ؟ لا لن أرضى» ..

تهتف له نفسه :

- الآن بلغت الحلم . وإن ترضى يغتصبك الغير .. مراراً وجهاراً .. فاخرج من جلدك والبس غيره ، حتى تحبل .. ■

ديسمبر ١٩٩٨

الحنين والأفق البعيد

بدأ النهار يلملم ماتبقى له من وقت ، حاملاً على كتفه قرص الشمس بعد أن فقد توهجة بلونه الأصفر النحاسى ، والليل بستائره الرمادية يطارده، وينشر بالتدريج ألوانه القاتمة عبر الأفق الذي تهاجمه بعض الغيوم الداكنة .. تتوقف سيارة أجرة بلاضجيج وينزل منها رجل يحمل حقيبة سوداءمتوسطة الحجم .. يبدو عليه القلق يجول ببصره فيكتشف أن المكان مقفر وموحل .. تعلو وجهه امتعاضة ساخرة حين تقع عينه على بوابة كبيرة يحيط بجانبيها سور مرتفع وبقربها مبنى صغير على هيئة برج . بدأت العتمة تزحف وتعلن عن ليل ثقيل يتقدم بعض الخطوات على بعد من البوابة التي تقف فوق مستنقع من الطين اللزج .. يحاول أن يكتشف طريقاً أكثر جفافاً ليصل إلى البوابة ، لكنه لم يفلح فقد قادته قدماه إلى المستنقع، دون أن يتمكن من الابتعاد فقد زادت قدماه التصاقاً بطين الأرض اللزج .. ترتطم قدماه بجسم صلب .. يتوقف ساكناً .. حين يتذكر ماسمعه عن حقول الألغام التي تحيط بالمكان .. تملكته رعدة خوف وشعر بانكسار وخيبة، وأن قدره قاده إلى هذا المكان ليلقى حتفه قبل أن يلتقي بها، فتحسر على وقته الذي أضاعه في انتظار بطاقة العبور التي انتظرها طويلاً .. نباح كلب يثير في نفسه الرعب .. والمكان لايوحي بالطمأنينة .. بدأ يتصبب من جسده عرق بارد . يزداد توغل الليل ويزداد الظلام . وأحمد واقف في مكانه وقدمه تدوس على الجسم الصلب الذي ظنه أحد الألغام – خُيل إليه

أنه يسمع همهمات مرعبة تأتي من المقبرة القديمة القريبة من المكان فارتجف هلعاً واقشعرت منابت بقايا شعر رأسه ، طأطأ رأسه وأخذ يفكر بالموت الذي يحيط به ويصرخ في وجهه بصوت غير مسموع . شعر بضآلته حين بدأت الرياح تكنس المكان قرب المستنقع الذي يقف فيه ، تحمل بقايا الأشجار وأوراقها وبعض النفايات تلقيها في المستنقع قريباً منه . تمسك بالحقيبة واحتضنها فهي كل مايملك الآن والرياح تبعث ببقايا شعر رأسه الرمادي - كأنها تحاول أن تطرد غبار أيام عمره . تهطل بعض الأمطار يلتصق شعره بغبار أثارته العاصفة ، فيبدو كإبريق فخار رديء الصنع وسط العتمة المتعملقة ، يزداد المطر ويزداد عصف الرياح ، يزداد خوفه فيندفع بصعوبة نحو البوابة فقد أنساه ذلك ماتحت قدمه . وساعده على ذلك أن لزوجة الطين قد خفت مع هطول الأمطار . يصل إلى البوابة بعد أن صارعت أقدامه الطين المتدفق نحوها شعر أن قدمه اليمني تكاد تتوقف عن الحركة . بدت له البوابة شاهد قبر كبير . يحكي قصة الزمن البعيد في هذا الليل البهيم الذي تختلط فيه الأصوات وتفوح فيه رائحة القبور العطنة. تخيل جماجم طويلة الأسنان تنادي أحياء البشر بأن ينضموا إليهم في رحلة الموت البطيء تحت دموع سحاب لم يدم حزنه طويلاً. .نظر إلى السماء وهو يمسك بحديد البوابة البارد وقد التصقت ملابسه بجسده النحيل المتهالك .. وحقيبته التي غطاها الطين مازالت معلقة على كتفه المنهار ..كان يبحث في السماء عن نجمه الأفل في ليل نحسه الطويل الذي يتماهي فيه مع مستنقع الطين ، يتمتم ببعض كلمات بلا معنى .. الجو خانق .. أنفاسه تتلاحق .. يستدير نحو البوابة ويدقها بكلتا يديه . يأتيه صوت من البرج

القريب يأمره بالابتعاد وإلا تعرض للمـوت .. يبتسم بسخرية حين يسمع " التهـديد بالموت " يسمع صريـر باب يُفتح ويأتيه صـوتٌ أكثر وضـوحاً بأن ينتظر حتى تتوقف العاصفة.

لاذ بالصمت والألم يعتـصر قلبه . أنفاسه اخـتلطت بالأمطار وما تحمله الرياح . تزداد الحـقيبـة ثقلاً . حـاول أن يطرحهـا جانبـاً وسط الطين ، لكنه تذكر أنها تحتضن هدية اشتراها ليقدمـها لها بعد اللقاء فأبقـاها معلقة على كتفـه وشعور بالعجز يملأ صـدره الضامر تحت ملابسه المبـتلة التي أصبحت لزجة تنبعث منها رائحـة تثير الغثيان . لكنه بقي واقفـاً رغم استمرار هطول الأمطار ، والطين يحـيط بقـدمـيه ويزداد برودة فلزوجـة الطين قـد دخلت حذاءه الذي ازداد حجمه بحيث أصبحت قدماه تتحرك بسهولة داخله.

يطل حـارس البـوابة بعد أن خـفت الأمطار ويأمـره أن لايمسك البـوابة حتـى لاتقع ويحاكم بتـهمـة إتلاف ممتلكات عامـة .يتملكه الضـحك حين سمع ذلك ويتـحول إلى قـهقهـة عاليـة تثير غـضب الحارس الذي يتـوعده بالعـقاب ، فـينظر أحمـد إلى يده النحـيلة التي لاتسـتطيع أن تكسر غـصناً صغـيراً ، فيكتم قـهقهـته بعد أن سـمع التهـديد بالعقاب .. تذكـر المحاكم والوقوف داخلها فـقد كان حاجبـاً فيها ومايزال ينادي ويصـرخ : محكمة ، مـحكمـة .. لايملك أكثـر من ذلك فـهـو لا يسـتطيع أن يتـرافع في قـضيـة ولايدافع عن أحد .. فقد أورثتـه هذه الوظيفة الجبن . حتى إنه حين فكر أن يطالب بعلاوتـه التي تأخرت تراجع خوفـاً وجبناً . يظهـر الحارس وفي يده بطارية ويطلب من أحمد بطاقة العبور الصفراء ، يدس يده في معطفه المبتل ويخرجها مبتلة أيضاً ، يسـتاء الحارس ويطلب منه أن يحافظ عليها ثم أشار

إليه أن يعبر البوابة بعد أن انفرجت قليلاً . مشى متثاقلاً وأقدامه تخب في برك الماء الصغيرة على درب اختفت معالمه . توهم وسطه أشباح مرعبة تحملق فيه بسخرية واستهتار وتتركه كشيطان غريب يحمل معه شرور العالم تحت معطفه المشحون بالطين وماء المطر .. وحقيبته المشوهة الشكل معلقة بإصرار على كتفه المتورم من زيادة وزنها بفعل الأمطار والطين .

فكر أن يستبدل ملابسه لكن الملابس الأخرى مبتلة وستبدو قذرة أيضاً حين تتلوث بيديه .. فعدل عن ذلك وواصل سيره إلى محطة الحافلات التي وصفها له زملاؤه قبل أن يودعهم .. تملكه التعب وشعر بخدر يدفعه إلى الجلوس في مكانه في هذا العراء المقفر ، تثاقلت أجفانه وخيل إليه أنه وسط جحيم "دانتي" بأشباحه المخيفة ، لكنه قاوم ذلك الإحساس بشجاعة "دون كيشوت" حين قاوم أوهامه وطواحين الهواء - تماهي معه وهو يصارع أوحال الطريق ، يجر ساقيه ، والحقيبة ترتطم بجانبه فتدفعه قليلاً إلى الاتجاه المقابل ، إلى أن وصل المحطة فتدفقت دموعه تغسل وجناته وتنظفها فامتاح ذلك واستمر في البكاء . بالقرب من كشك صغير- تقف حافلة قديمة منفرجة العجلات كأنها تبول ما بداخلها يقترب منها - يجد أن السائق غارق في النوم وشخيره يعلو بوتيرة منتظمة تدل على عمق نومه ، يتردد قليلاً ثم يصعد الحافلة ويحاول أن يوقظ السائق ، وبعد عدة محاولات فرك السائق عينيه وهو مابين النوم واليقظة ثم نظر إلى أحمد وهو يقول له إن الوقت مازال مبكراً وعليه أن يجلس مع غيره من المسافرين في ذلك الكشك ، شعر أحمد بغصة تكاد تخنقه حين ذكر له السائق أن هناك بعض

المسافرين وبعد أن نظر إلى نفسه توسل إلى السائق أن يسمح له بالبقاء في الحافلة .. نظر إليه السائق بعين نصف مغمضة وقال بلا تردد :

- اتدفع قيمة تذكرتين ؟

فوافق على الفور . واختار كرسياً خلفياً جلس فيه وشعور غريب بالخجل يخالجه ، أخذ يلملم نفسه منكمشاً فوق الكرسي يغالبه النعاس ..

استيقظ السائق وأدار محرك السيارة الذي أنّ باحتضار ثم توقف ، فعاود السائق إدارة المحرك فأنّ مرة أخرى وسعل اهتزت السيارة وعلا صوته المبحوح الأجش ، وشاعت رائحة دخان العادم الخانقة ، وبعد قليل بدأ المسافرون الصعود داخل السيارة التي ازداد ارتجافها ونحيبها على حظها العاثر فهي مازالت تعمل في شيخوختها ورفضت الانتحار فضلت أن تبقى وفية لأصحابها الذين امتهنوها ولم يرحموها سواء في شبابها أم في شيخوختها فهي ما زالت تقوم بعملها رغم جسدها المترهل المكدود فمازال هناك أشخاص لاتعرف قلوبهم الرحمة ، بعد أن ضعفت أبصارهم فهم مازالوا يدفعون ويركبون.

يطمس الليل معالم الطريق وعيون أحمد تزاحم الطين المحيط بها يسترق النظر عبر نافذة الحافلة المعتمة لعله يكشف المكان .. لكن الليل والطين يحرمانه لذة الاكتشاف والتذكر .. وبعد ساعة تتوقف الحافلة أمام قلعة قديمة ، ينزل أحمد بعد أن نزل جميع الركاب وبتلصص يدلف إلى حارة جانبية ، يقف قرب أحد الأبواب .. يطرقه فقد عرفه .. لم يتغير ، إنه باب منزله القديم .. يسمع صوت .. إنها هدى .. يكاد قلبه يقفز من بين ضلوعه .. ينتظر قليلاً .. يجيء الصوت مستفسراً :

- من يدق الباب في هذا الوقت المتأخر من الليل ؟ ..

يرد بصوت منخفض :

- أنا أحمد زوجك ..

لم تفتح الباب ، يبدو أنها لم تصدق أو أن صوته قد تغير ، يدق مرة أخرى ويهمس لها :

- أنا أحمد صدقيني .

يسمع صوت المزلاج ، يزداد قلبه خفقانا ويسمع دقاته بوضوح ، توارب الباب وتطل بوجهها الذي لم يفلح الليل أن يخفي لونه الفاتح ، وشعرها الأشقر ينسدل على جانبيه ، تنظر إليه ثم تقفل الباب بقوة فيصطدم أنفه به .. يغطيه براحة يده ، ويقف حائراً لفترة من الوقت ، ينظر حوله ليتأكد من أن أحداً لم يره .. والليل سادر في سكونه .. ظن أنها لم تتعرف عليه .. يعاود الطرق فالحنين يدفعه واللقاء قريب .. يطرق الباب بلا ضجيج .. يتوقف ثم يعود إلى الالتصاق بالباب هامساً :

- أنا أحمد ياهدى .. !!

لايسمع شيئاً إلا صوت أقدام تبتعد بحذر عن الباب .. أذهلته المفاجأة وارتد شوقه داخله ، ازداد وجهه قتامة ، والليل يمضي يحمل الأسرار ويحمل الخوف - يثير في النفس الرعب من الغرباء ، ويبدو اللقاء بعيداً- فتحملق الهواجس في وجهه وتزداد أوهامه لكنه يبقى مصراً على موقفه .. يطرق الباب ثم يتوقف .. لم تحاول المرأة أن تفتحه مرة أخرى . الضعف يسيطر عليه مع برودة الهزيع الأخير من الليل .. تخور قواه .. يتمدد قرب الباب .. يحتضن عتبته يمد يده مرة أخرى ويحاول أن يطرق الباب تسقط على صدره تحتضن أوحال الطريق وتبقى فوقه بلا حراك . ويسود صمت حزين

الأهرام - ملحق الجمعة / ١٩٩٨

إصرار

لقد بكوا حين رأوني ممدداً على رصيف لابلاط له في شارع جانبي في أطراف بلدتي الصغيرة التي تقع قرب شاطىء البحر ، حاولوا أن يحملوني بعيداً ، لكنهم فشلوا ، لأن جسدي كان ملتصقاً بالأرض ، مجذوباً إليها . وعندما فتحت عيوني وجدوا الدموع في مآقيها .. انزلقت على جانبي رأسي ، تلسعني حرارتها وأنا أتذوق مرارة أحزاني في آخر أيام عمري فوق هذا المكان .. قال أحدهم :

- اتركوه إنه مخلوق غريب .. لابد أن أرواحاً شريرة تسكنه .

لكن الناس لم يتفرقوا .. تركهم وهو يلتفت نحوى .. ونظرة رعب تخرج من عينيه في وجهه الضامر .. كنت أتابعه بعيني الدامعتين .. تمنيت أن أتحدث إليه وهو يبتعد .. ارتعشت يداي وارتجفت شفتاي ..كنت أود أن أقول له :

- ليتك تقنعهم أن يفعلوا مثلك ويبتعدوا عني لكي تصل أشعة الشمس إلى جسدي المنهك

- كنت أشعر ببرودة شديدة تكاد تشلني تماما وتحبس أنفاسي التي تباطأت مع مرور الوقت .. كانت في أعماقي قشعريرة شديدة .. لكن للأسف لم يلحظها أحد .. شعيرات جسدي المكدود تسمرت ، كمنابت ريش «مالك الحزين» الذي كان يقف فوق بركة ماء قريبة - تأسنت حين بقيت في هذا المكان المغلق من كل الجهات .. وقف مالك الحزين فوق

صخـرة صغـيرة وسط الماء حـين تملكه الظمأ - لكن المسكين - بـعد أن غمس منقاره فيها .. تأرجح واسـتكان فوق الصخرة بحزنه الأزلي .. حاول أن يفرد جناحيه ويرفرف بعيدا عن المكان .. لم تنجح محاولته فقد خارت قواه - فأغمض عينيه وراح في غيبوبة عميقة .

كنت أتمنى لو أنني قصصت أجفاني كما فعل البـوذيون في أساطيرهم كي تبقى عيناي مفتوحتين .. أراقب ما يجري حولي .. عندما جاءت سيارة إسعاف .. تبينت بصعوبة .. وجفـوني تضغط متثاقلة على عينيْ .. رجلين نزلا منها .. أحـدهما هزيل الجـسم تقدم مبـاشرة نحوي حـاول أن يرفعني حين رأى أنني صـغـيـر الحـجم لكن تكشـيـرة ألم ارتسـمت على وجـهـه المسمـاري ، نادى على زميله لكي يساعـده .. وأنا انتظر صامتـا بلا حراك ، ماذا سيـفعلان؟ حاولا حملي لكي ينقـلاني إلى السيارة .. لكنهمـا فشلا .. فقد كـان جسدي ملتصقاً بأرضـية الرصيف دارَ الجميع حولي يفـتشون عن سبب التصاقي بالأرض رغم حالتي البائسة .. لم يجدوا شيئاً.. اقترح الرجل الهزيـل أن يرشوا بعض الماء على جـسدي المسُجى أمامهـم .. حاولت أن أبقي عيني مفـتوحتين أكثر من المرة السابقة عندمـا وصلت السيارة .. بدءوا يرشون الماء علـى جسمي النحـيل فانكمش قليـلاً - صاحوا بـجنون - لقد تحرك. كان الماء ينسـاب على جسدي بعد أن ابتلت مـلابسي .. تسربت في أعماقي برودة شديدة وهم يندفعون نحـوي ليحملوني بعيداً عن المكان إلى سيارة الإسعاف .. تملكتهـم دهشة ممزوجة بالخوف حين فشلوا أيضاً في رفع جسمي .. فتركوني وأخذوا يبتعـدون وعيونهم شاخصة إلى جسدي الممدد فوق الرصيف .. انفرجت شفتاي وبرزت أسناني .. همست بصعوبة :

- اتركوني - سأموت هنا

لكنهم لم يسمعوا شيئا واستمروا في حركتهم إلى الوراء بعيداً عني .

مضت ساعات قليلة والشمس تواصل انحدارها نحو المغيب .. لمحت في نهر الطريق جموعاً من الناس تتوجه إلى مكاني والفضول يدفعهم إلى الاقتراب .. وعندما وصلوا وجدوني أحتضر . جسدي الصغير يفقد ماتبقى له من حياة ، بدأ بالارتخاء .. تيبست أطرافي وروحي تصعد إلى السماء .. تراقب الموقف الرهيب .. جسد مسجى بلا حياة وجموع تكاد الحياة تهرب من أجسامهم وهم يقتربون بتوجس وحذر من جثتي ، تقدم بعضهم ورفعوها بسهولة .. نظروا إلى بعضهم البعض بارتياب ودهشة وهم يشاهدون بعض الأعشاب التي نبتت مكان جثتي - اقترح رجل يلبس عمامة أن يدفنوا جثماني في نفس المكان - سرت بينهم همهمة ، ثم شرع بعضهم يحفر قبراً صغيراً ..كانت روحي مازالت ترفرف فوق المكان يغشاها شعور بالرضى .. وهي تصعد بعيداً بعيداً إلى السماء .. ■

محاكمة

تجمع أهل القرية يقودهم المختار لمحاكمة عواد لأنه تجرأ وتجشأ بصوت مسموع أثناء وليمة يقيمها المختار في منزله كل شهر لكسب ود الناس في قريته .. وكان قد عين ثلاثة من أعوانه لهذه المحاكمة حسب عرف شائع بينهم كان أولهم سالم الزنديق الداعر المعروف لكل أهل القرية وبالذات نسائها والثاني سليمان المرابي الذي يمتص رحيق حياة الناس في هذه القرية التعيسة والثالث أمين سارق الأغنام والدواجن من القرى المجاورة التي يبيعها بثمن بخس في سوق القرية الذي يقام كل يوم أربعاء من كل أسبوع.

وقف عواد صامتاً والغيظ يكاد يقتله وهو ينظر إلى الجموع أمامه تارة ، وإلى هيئة المحكمة تارة أخرى ، فهو يعرف المختار ورجاله الذين سيصدرون الحكم عليه ، كان يتمنى أن يحاكمهم هو لرفع الظلم عن أهل القرية المسالمين ويخلصهم من عدالة المختار الزائفة التي فرضها عليهم فزادت آلامهم وعذابهم وهم يسيرون في ركب الحياة غير قادرين على تغيير واقعهم المليء بالفساد ، واكتفوا بالصمت خوفاً من المختار وأعوانه يكتمون تأوهاتهم ويتبارون لإرضاء مختارهم الذي استطاع أن يطفو على سطح حياتهم حين فسدت معايير الصدق وانقلب ميزان العدالة .

جلس المختار على يمين سالم ، وبدأ يسأل عواد بلهجة متعالية ونظرة قاسية خالية من الإنسانية والرحمة تطل من عينيه المتنفختين قائلا بصوت جهوري كالرعد :

- اسمك بالكامل .

رفع عواد رأسه مستغربا وأجاب بلا تردد:

- الكل يعرفه يا مختار .

- اندفع الدم إلى وجه المختار وازداد انتفاخ عينيه وتعاظمت دمامته وهو يقول بلهجة آمرة:

- عليك أن تجيب بلا تهرب .

تحرك عواد في مكانه وقال:

- أمرك ياسيدى ، اسمي عواد العائد أبوالعود.

ضج الحضور ضاحكين بعد أن سمعوا كلام عواد ، وقهقه بعضهم ساخراً .. حتى المختار لم يمنع ابتسامة مبتورة ظهرت على جانبي فمه بشفتيه المتورمتين دوما بلا سبب معروف .. يعلوهما شارب كبير ، يعاود المختار استجواب عواد بلهجة أقل حدة قائلاً :

- ماعمرك؟

يرد عواد بلا مبالاة :

- أربعون سنة .

يتململ أحد الحاضرين ويهمس إلى رجل بجانبه :

- إنه يبدو أكبر من ذلك ..

لكن الرجل لم يرد عليه .

بعد أن رشف المختار بعضاً من القهوة التركية . بصوت مسموع من فنجان أحضره أحد حراسه .. وجه سؤالا إلى عواد رغم أنه يعرف الإجابة مسبقا قائلاً :

- هل أنت متزوج

- لا ياسيدي .

قالها عواد بإصرار.

- لماذا ؟ هل يمكنك توضيح ذلك .

- لا أستطيع ياسيدي ، إن الله أمر بالستر .

- أتعرف الستر يارجل وأنت ..

قاطعه عواد مباغتا :

- أنا ماذا ياسيدي ؟

- ألا تعترف أنك تجشأت أثناء الوليمة في منزلى.

- لا أنكر ياسيدي - وها أنت تحاكمني بسرعة وتترك الآخرين بلا محاكمة رغم ماقاموا به من فظائع وجرائم ..

قاطعه المختار غاضبا :

- ليس من حقك أن تُملي علينا ماتريد .. لنرجع إلى موضوعنا .. هل بإمكانك أن تفسر ماحدث أثناء الوليمة .

- لاأدري - وجدت نفسي مضطراً إلى ذلك - فتجشأت .

- ألم تشعر بالخجل.

- لا ياسيدي .

يضحك بعض الشيوخ الحاضرين.

- إذن . لابد أن تعاقب.

- أمرك سيدي - لكن لا أرغب أن يشترك معك هؤلاء الرجال .

وأشار إلى سالم وسليمان وأمين.

سرت همهمة بين الحاضرين وهم ينظرون إلى عواد باستغراب ودهشة ، لأنه تجرأ على هيئة المحكمة ، فهم يعرفون أولئك الرجال ، لكنهم لايستطيعون انتقادهم أو معارضتهم خوفا من بطشهم .

استشاط المختار غضباً حين سمع ذلك وطلب من عواد آمراً أن يسكت فهذا ليس من شأنه وليس له حق الاعتراض.

إلا أن عواد أصر على موقفه وكرر طلبه ، ولما حاول المختار أن يوقفه مرة أخرى ، صاح عواد في وجهه قائلاً :

- الكل يعرف هؤلاء الظالمين وأعمالهم الدنيئة ، فسالم يغتصب نساء القرية كل ليلة حتى الصباح يختار منهن مايطيب له .. وهذا مامنعني من الزواج حتى لا أكون .. ، وسلمان يبيع كل شيء حتى نفسه من أجل النقود .. يغتني ويزيد ثروته على حساب الفقراء المساكين ، وأمين البعيد عن الأمانة يسرق الأغنام ، وأنت تعرف كل ذلك وتتغاضى عنهم ولا تحاكمهم ، وتحاكمني لأنني تجشأت .. أعرف أن هذا في عرفكم يستحق حكمكم الجائر .. بأن يعمل في مزارعكم وحقولكم كل من يتجشأ في مكان عام لمدة أسبوعين بلا أجر ، ولكن من يتاجر بأعراض الناس ويغتصب النساء ويسرق ويرابي يبقى بلا محاكمة .. أليس هذا غريباً .. أليس هذا ..

لم يلحق عواد أن يكمل كلامه فقد نزل المختار من مكانه ولطمه على وجهه بقوة فأطاحه على الأرض ، وما أن شاهد الناس ذلك حتى أسرعوا إرضاءً للمختار وبدأوا يضربون عواد بلا هوادة وهو يصيح بينهم :

- لقد اشتراكم المختار أيها المساكين ..

لكنهم لم يستمعوا إليه ، فقد ذهب صوته وسط ضجيجهم ، واصلوا ركله وصفعه لأنه حاول كشف أسرارهم وعوراتهم ، لم يبق أحد من الحاضرين إلا واشترك في جلد عواد .. إلا حنان ذات العشرين عاما بقيت ترقب الجمع من بعيد دون أن تفعل شيئا وهي ترى عواد تدوسه الأقدام وهو يفترش الأرض .. يختلط ترابها بدمه المراق من كل جسمه وقد تمزقت

عنه ملابسه ، تملكها الحزن عليه وتمنت لو يخرج عواد سالماً لها ليتحقق حلمها بأن يكون لها ، لكن أنفاس عواد كانت تتلاحق بعد أن فقد إحساسه بالألم من كثرة ماتلقى من ضربات ، لم يعد يتحرك ، لقد أصبح جثة والحياة تهرب منها حين بدأ الأطفال يتقافزون عليها وصيحاتهم تملأ المكان وهم يتلهون بها كدمية بين أرجلهم .

يأتي الليل وجثة عواد في مكانها وحيدة بعد أن تركها أهل القرية وأطفالهم بعد أن ملوا من تكرار ماقاموا به نحوه ، فالكل في بيته يحمل معه رماد سره المفتوح بعد أن أطفأ ناره التي اشعلتها المحاكمة قبل أن تنتهي.. أما حنان فقد تسللت من بيتها وقلبها واجف يرتجف بعد أن تأكدت من خلو المكان الذي يرقد فيه عواد بلا حراك واقتربت منه ، خيل إليها أنه أصبح أكبر طولا وعرضا من كثرة ماداسته الأقدام .. لم تفكر طويلا ، أخذت تسحب الجثة بسرعة إلى المقبرة القريبة ودمعة حزينة على وجنتيها - لقد كانت تحبه - لكنه لم يقبل أن تكون مثل غيرها ، كان يريدها له وحده ، وكان يعرف أن سالما قد سبقه .. لم يستطع أن يغير شيئاً ، اكتفى بأن يجتر آلامه بعيداً عنها ..

تقترب حنان من حفرة بجوار ضريح قديم - تضع فيها عواد بعد أن فقد دفء الحياة - ودموعها تغسل وجهه الذي فقد بعضا من ملامحه . ويداها تهيلان التراب عليه تداريه وتدفنه .. فقد كان حبيبها الذي أصبح ذكرى لأحلام حُرمت منها في واقعها الأليم .. تعود في جوف الليل البهيم إلى بيتها وقلبها ينزف حسرة وألماً .. ليبدأ الانتظار الرهيب دون شكوى ■

هزيع من العمر

أمام شاشة التليفزيون - تكور على نفسه وهو يشاهد أحد البرامج في ليلة من ليالي الشتاء الباردة - يسحب بطانية قريبة منه ويغطي جسده المنعطف على نفسه بعد أن شعر بالبرودة تدخل إلى عظامه الواهنة وهو يقترب من الستين عاما ، رغم أن مظهره لايدل على ذلك ، فوجهه قليل التجاعيد ، يتمتع ببعض النشاط في عمله . اضطرته ظروفه أن يعيش بعيدا عن أسرته بعد أن حصل على عقد عمل كملا حظ عمال لإحدى شركات المعمار في دولة من دول الخليج - تراوده أحلامه الشائخة في تحسين وضعه المادي لكي يحقق لابنته سُكينة رغبتها في دخول الجامعة ، كما أسرت إليه في عصر أحد الأيام ، وهي ترقد بجانبه عاقصة شعرها وهي ترفل في ربيعها السادس عشر مسترسلة في حديثها معه بأنها تحلم أن تصبح مدرسة علوم وتساعده في حياته وتعوضه عن حرمانه حين اضطر أن يكتفي بشهادة الثانوية العامة .. وكان يحدثها بدوره عن همومه وآماله ، عن ضعفه وقوته، عن الحياة وتقلباتها فهي ترفع الوضيع وتُسقط الرفيع - وكان يفلسف موقفه من الحياة بشيء من الأمل الذي يساعده على الاستمرار في كفاحه من أجل الأفضل رغم شعوره أحياناً بالهزيمة .

ولكن ليس إلى حد اليأس .

لم تكن زوجته راضية عن سفره وهو في هذه السن المتقدمة ولم تخف حزنها عليه وهو يودعهم في يوم سفره ، أما سُكينة فقد خالجتها مشاعر

مختلطة من الحـزن والفرح .. الحزن على فراق أبيها .. والفـرح بما سيأتي به من هناك لما كانت تسـمع من زميلاتـها اللائي كن يتبـاهين أمامهـا بما يجلبه أقاربهن الذين يعـملون في تلك الدول ولم تكن تعي أن راتب والدها ليس بمستوى طموحاتها ..

يتابع الشاشة الصغيرة والمشاهد تتراقص عليها مع تغير التيار الكهربائى، يخرج بعض النقود من جيبه حين يتحسـسـها وتدخل إلى نفسه فرحة بسيطة حين يتذكر أنه سيرسلها إلى أهله بعـد أن استطاع توفيرها من راتبه الضئيل رغم تكاليف الحيـاة الباهظة ،وتقتيـره على نفسه والاكتـفاء بأقل القليل من ضروريات الحياة.

يضع المبلغ في جيبه مرة أخرى ويربت عليـه .. يتابع مشاهدة التليفزيون تسليـته الوحـيدة في غربـته .. يشده تقـرير إخبـاري عن وطنه ، يعـتدل في جلسـته ، يتناول برتقالة من طبق بجـانبه فيـه بعض التمر وبرتقـالتين ، يبدأ بتقشيرها وعينه على الشاشة ، تظهر صورة لبعض جنود الاحتلال يطاردون جمـهوراً من الأهالي مـعظمهم من الشـباب الذين يرشـقونهم بالحـجارة ، تتعثر فتاة وتقع على الأرض ، يلحق بها الجنود ، يمسكونها ، تحاول المقاومة، يلكزها أحـدهـم ببندقيـته ، يطل وجـهها الجـميل من بينهـم وهي تحاول أن تتخلص من أيـديهم ، تتضح الصورة أكـثر والفتـاة تصرخ وهم يضـربونها بقـسوة ، يمسح نظارته ويتـابع بقلق ، تنتـزعه الـصورة من مـجلسه وتكسـر هدوءه ، يدقق النظر ويردد بصوت مرتجف :

- إنها هي .. سُكينة .. ابنتى.

يقترب من جهـاز التليفزيون ، يجلس على ركبتيـه ويتابع ويداه ترتجفان

ودماء قلبه تغلي من التوتر النفسي الذي اعتراه ، يزداد صراخ ابنته وبكاؤها وهي تلتفت حولها والذعر في عينيها بعد أن نزعوا خمارها وألقوه بعيداً ، سحبوها على الأرض ، حملوها بعنف إلى سيارتهم العسكرية الضخمة وهي ماتزال تستصرخ الآخرين رغم بعدهم عنها .

ينتهي التقرير الإخباري وهو مازال يحملق في الشاشة ، ويده تعصر بقايا البرتقاله في نفس اللحظة التي عصرت عيناه دموعها .. تملكه إحساس بالحيرة والفزع ، عذبته صورة ابنته ، خطر بباله أن يوقظ العمال في العنبر المجاور ، لكنه لم يفعل وبدأ يدور داخل غرفته .. يهرش جبهته عدة مرات.. وصورة ابنته لم تفارق عينيه ، شعر بالحسرة والألم .. دموعه بدأت تسترسل على وجنتيه وتتخلل لحيته الرمادية تكاد تحرقها من سخونتها ، يفتح باب الغرفة .. البرد قارس خارجها ، يتجه إلى أكوام الخشب أمامه ، يتناول قطعة كبيرة يضرب بها أكوام الأسمنت والتراب بشدة ثم يلقيها وينظر إلى السماء عيناه محمرتان .. يتضرع إلى الله أن يلهمه الصبر ويهديه إلى الصواب وهو يفكر فيما سيفعل حتى يخرج من محنته التي نزلت على رأسه فزلزت حياته في هزيع من عمره القريب من نهايته ، تراكمت أمامه ستائر من سُحب الأوهام العسيرة فزادت من اضطراب أحاسيسه وتاه في بحر من المخاوف على أسرته وبالذات سُكينة ، ابتلع آلامه وترامت حوله الوساوس وهو يتذوق ملوحة عبراته التي لم تتوقف على ابنته ووجهها الجميل المعفر بتراب الأرض أحس أنها تراه وهي معصوبة العينين داخل السياره العسكرية ، رغم المسافة البعيدة بينهما - وصوتها يحفر أذنيه وهي تصرخ .. حين اشتد بها الألم ودخلت مأساتها.

هواتف قلبه تعمل بلا نظام ، ترسل أمنياته الحسيرة من أعماقه عبر أنفاسه المتلاحقة ، نظراته حزينة ترنو إلى الفراغ داخل الليل ، تتلاشى الحدود الفاصلة بين واقعه وأحلامه ، نار الغيظ تتقدما بين ضلوعه إشفاقاً على ابنته في سواد ليلها الطويل ، يتخيلهاداخل زنزانة رطبة - كريهة الرائحة .. يذبحها قلقها وفي مهجتها فزع البعاد عن الأهل ودفء أحضان الأم الذي افتقدتهَ في زمهرير عذابها الممتد إلى غدها الرهيب.

كان يعرف زنازين العدو ، لقد خبرها في أيام عمره السابقة ، ها هي الآن تخنق أعز مايملك .. سُكينة .. بأحلامها وورود آمالها .. بجمالها البرىء تنهشه مخالب وحوش البشر وهم يمتصون دماء حياتها بعد أن جرحوها.

أمضى ليلته محملقا في شاشة التليفزيون الصماء - تنثال عليه مآسيه في لحظة واحدة تختزلها سُكينة وهي ترقد معصوبة العينين ، مكتوفة اليدين على أرضية السيارة - تمنى لويصبح طيراً من طيور الأبابيل ليخلصها من عذابها .

يتقلب على جمر فراشه البارد ، يضع يده تحت رأسه والقلق يشويه ، وقلة حيلته تدمي ماتبقى له من قلب خفيق ، تأخذه سنة من النوم ، يحلم خلالها بسُكينة تهديه بندقية. يفتح عينيه ويقرر أن يستقيل من عمله ليكون قرب أسرته في هذه الظروف الصعبة ، انتظر أول خيوط الفجر ، انتزع نفسه من مرقده ، صلى ثم استعد للذهاب إلى مقر الشركة ليقابل صاحب العمل.

يقف رشيد أمام مكتب الشركة ، الشارع خالٍ والوقت مبكر وعقارب

ساعته تدور ببطء ، ينظر إليها من حين لآخر ، يستعجلها تلوذ بالصمت ، يخلعها من يده ويضعها في جيبه .. يمر الوقت .. وتبدأ الحياة تدب في الشارع وسط المدينة الكبيرة ، يأتي مدير الشركة وبعد أن يجلس إلى مكتبه، يتقدم منه ويخبره بمصيبته ، يتفهم موقفه ، ويطلب من معقب الشركة أن يقوم بعمل الإجراءات والحجز له.

في اليوم التالي يصل رشيد إلى منزله البسيط بعد ساعات سفر مضنية ، يقابله الحزن في كل مكان في البيت وعلى وجوه أسرته ، بدت زوجته أكبر من عمرها .. أبناؤه حوله يقبلهم وعينه على مكان سُكنية الذي اعتادت أن تجلس فيه ، يمنع دمعة حاولت التعبير عن آلمه وحزنه ، لم يتحمل جو البيت الكئيب وسراجه غائب عنه ، يخرج منه وسط دهشة أسرته .. يغذ الخطى .. يلتفت حوله ليتأكد من أن أحداً لايتابعه .. يصل منزل صديقه جابر .. يطرق الباب بحذر .. لحظات تمر ويفتح الباب .. يدلف إلى المنزل بسرعة ويغلق جابر الباب ثم يرحب برشيد ويواسيه لما حدث لسُكينة ، يجلس رشيد لاهثاً ويسأل جابر عن "الجماعة" وعملياتهم ، يهمس في أذنه .. تتسع عيناه .. يومىء برأسه عدة مرات .. يذهب بعدها دون أن يتناول فنجان قهوته الذي أحضرته ابنة جابر الصغيرة .

تمضي بضعة أيام ، يأتي أحدهم إلى منزل رشيد مع بداية الليل ، ويذهب معه بعد أن مسحت عينه أهل بيته ، يتقدم الليل وتبدو النجوم خلف ستار الظلام ، السكون يلف المكان قرب بناية كبيرة ، يقترب رشيد من سورها وأنفاسه تتلاحق بصمت ، يطمئن أن الحزام حول وسطه - ينظر حوله بترقب وحذر ، يتسلق السور بعد أن تأكد أن حراس البناية غير

موجـودين لكنه يسمع أصـواتهم من بعيـد وهـم يترنمون بأغنياتـهـم وكأنهم يدرءون الخـوف عنهم ، يتسـحّب قرب الجـدار وعند ركن البناية يتـوقف ، ويستـرق النظر - يكتشف أن الجنود يدخنون ويتسـامرون بعيـداً عن مدخل المبنى الكبير - ينبطح ويبدأ زحـفه قرب المدخل ويده على الصاعق ، يدلف إلى الداخل وينزعـه ، ينفـجر الحـزام ، تتـوزع أشلاء رشـيـد تزين المكان ، ودوي انفـجارات مـتـتابـعة تتـوالى داخل البناية التي تحولت إلى ركـام .. أصوات اسـتغاثة وأنين تختلط بأصـوات سيارات الإطفاء والإسـعاف التي هرعت إلى المكان ..

راديو العدو يبث بياناته .. يعدد قـتلاه وإصاباته.. ويعلن أن البحث جار لمعرفـة حقيقـة ماجرى .. في هذه الأثناء فتـحت زوجة رشيد نافـذتها وهي تحوقل وتستعذ بالله.. هواء الليل يحمل إليها رائحة البارود وغبار الموت ..

أطلت من النافذة . لم تر شيئاً .. لكنها بقيت واقفة تنتظر عودة رشيد ■

المُغَادِر

حطت عجلات الطائرة على مدرج المطار الكبير ، سرعتها على الأرض تُدخل الخوف في النفوس ، ضجيج محركاتها النفاثة يصم الآذان ، بعض الركاب نهضوا من مقاعدهم رغم تحذيرات المضيفات الأنيقات كأنهن في ديفيلية لعرض الأزياء ، يُفتح باب الطائرة بعد أن توقفت ، يندفع الركاب للخروج ، الكل يتسابق هروباً من داخل الطائرة القديمة وحبا في لقاء الأحبة خارج المطار .

وحده بقي مع أسرته القليلة العدد ينتظر حتى يخف الزحام محتضنا أفكاره وخواطره ، بعد رحلة مرهقة على متن هذه الطائرة الشائخة . لم تكن بداية الرحلة موفقة ، تأخر إقلاعها ثماني ساعات لإصلاح عطب في أحد محركاتها ، الأطفال رقدوا بلا انتظام على المقاعد المنتشرة في الصالة ، نظرات الأمهات والآباء تلاحقهم بصمت وهم يغطون في نوم عميق .

انشغل إبراهيم بالنظر عبر النافذة الكبيرة للصالة إلى لاشيء . ابنته الصغيرة التي تعدت عامها الأول بثلاثة شهور ترقد في عربتها الصغيرة بجانبه ، وزوجته مع ابنهما الأكبر البالغ من العمر خمسة أعوام يجلسان أمامه. أكياس من الورق والبلاستيك تحيط بالمكان بين الكراسي والمقاعد.. أحد المسافرين يعلق على قائد الطائره فيقول : إنه هرب بحقائب الركاب . ضحك البعض وانغمس الآخرون في حديث هامس وهم ينتظرون إصلاح الطائرة .

تنهض فتاة لاتخلو من جمال لافت ، تمشي بدلال ، تلملم عباءتها حول خصـرها ، تنظر باستـحيـاء حولها كـأنها تحـاول أن تعرف كم من العـيون الساهرة تلاحقها ، تلمع حول رقبتها سلسلة ذهبية معلق بها قلادة على هيئة قلب ، تعود إلى مكانهـا بعد أن اشتـرت زجاجة ماء بارد من "بوفـية" المطار الخاص بصالة المغادرة .

يفـتح أحـد رجـال الأمـن باب الصـالة المؤدي إلى الطائـرة ، يطلب من المسـافرين الانـتظام في طابور اسـتعـداداً للصـعود إلى داخـلها بعـد أن تم إصلاح محركها ، يندفع الجميع والأطفال الذين أُوقظوا على عجل يغالبهم النوم وهم يتسحبون خلف أهلهم مـاسكين بهم بلا انتباه ..كان الليل يقاوم بدايات نهارٍ آت من رحم الزمان ، ونسمات ماقبل الفجر تتدفق عبر الباب المفتوح تنعش الوجوه وتخفف من سخونة المكان المزدحم.

يقف إبراهيم في الطابور وعائلته بالقرب منه ،صداع يغزو جوانب رأسه.

لم يصـدق أن رحلة الانتظار قـد انتـهت وهو يضع أولـى خطواته على سلم الصعود إلى الطائرة .. كـان داخلها ساخناً .. أجهزة التكيـيف المهترئة لم تعمل بعد .. منظر الطائرة من الداخل لايوحي بالطمأنينة.

يجلس قـرب النافذة وبجـانبه أسـرته .. تتـحرك الطائرة باهتـزاز عنيف وكأنها ترقـص رقصة الموت قبل نهايتـها .. تزمجر محـركاتها المحـتضرة .. بدت كأنـها تنعي الركـاب إلى مثـواهم الأخيـر وهي تبدأ رحلتـها بصـعود متباطيء نحو السماء.

***

صـالة الوصـول .. الضـجـيج يملأ المكان .. يجـمع إبـراهيم حـاجـاته

وحقـائبه، تجلس أسرته على المقـاعد المخصصـة للقادمين .. يتجـه إلى أحد الطوابير الطويلة لإنهـاء إجراءات الدخول ، شـعور بالانقباض يتـعملق في داخله .. يقترب من النافذة الصغيرة لغرفة موظف الجوازات .. يمد يده التي تحتـضن جوازات السـفر .. يأخذها الموظـف .. يأتيه صوته بعـد قليل وقت وقد خـتم جوازات سفـر الأسرة بختم الدخـول .. يناولها له بعد أن حـجز جواز سفره .. قائلا بلهجة آمرة: انتظر هـناك . أشار بعصبية إلى مكان بعيد عن المكان الذي جلست فـيه أسـرته .. لكنه يتوجـه نحوها ويعطي زوجـته جوازات السـفر ، ويخبرها أنه سـينتظر جواز سفره ، يطلـب منهـا أن تخرج مع ابنه وابنته إلى البيت مع الأهل .. تتردد .. لكنه يكرر الطلب ، يسأله ابنه بعفوية الأطفال :

- وانت يا بابا ؟

أجابه بمرارة :

- سألحق بكم إن شاء الله ..

تندفع زوجتـه متثـاقلة الخطى ، تدفع أمامهـا عربة ابنتهـا ، تعبر الحـاجز الذي يفصل بين الداخلين والمنتـظرين ، تلتفت إلى زوجها بعين دامـعة وهو يجلس على مقعد بعيد ...

***

بدأ النهار .. أشـعة الشمس الصـفراء تتسـلل عبر نوافـذ صالة الانتظار فتتـضح معالم المكان خارج المطار الكبيـر ، يمر الوقت زاحفاً ، ينظر إبراهيم إلى سـاعته ، تـخيل أنهـا لاتعمل ، حـاول أن يغمض عـينيه المرهقـتين من السهر، لكنه لم يستطع فقد بدأت جلبة قدوم الموظفين في وردية جديدة.

شاب في العشرين من عمره يقترب من إبراهيم ويستأذنه أن يجلس على الكرسي الخالي بجانبه ، نظر إليه ولم يتكلم واكتفى بزفرة صامتة حين بادله الشاب نظرة فيها بعض الفضول ، سأله بعدها:

- هل انتظرت طويلاً ؟

تفاجأ إبراهيم ، ابتلع ريقه ورد بهدوء :

- ليس طويلا.

- هل أنت ..؟

- بالطبع .. !!

- لاأحد ينتظر غيرنا ..

- هذا بسبب ظروف فُرضت علينا .

- أتمنى أن تنتهي هذه الظروف الظالمة.

- لا أظن . طالما نحن ..

تمر فتره صمت ، يقدم بعدها الشاب لإبراهيم علبة سجائره ، طالباً منه أن يأخذ سيجارة :

- شكراً .. لا أدخن

قالها إبراهيم بإصرار .

- غريبة .. أنك لاتدخن .

- لماذا ؟ هل هذا أيضاً مفروض علينا.

- لاأقصد .. ولكن الدخان يخفف من ضغط الهموم ..

- هراء إنه لايقدم شيئاً مفيدا .

يغير الشاب مجرى الكلام قائلاً :

- نسيت أن أعرفك بنفسي .. حامد مصطفى .. طالب هندسة بجامعة بلغراد .. وأنا من ..

يشعر إبراهيم ببعض الحرج ، لكنه بعد تردد قصير قال :

- إبراهيم حسن موظف بإحدى دول الخليج ..

يُشعل حامد سيجارة أخرى يخرج الدخان من فمه على هيئة دوائر متتابعة . ثم يضع السيجارة في المنفضة دون أن يكملها حين أشاح إبراهيم بوجهه إلى الجهة الأخرى ..

يستفسر حامد عن كافتيريا المطار .. فيقول له إبراهيم :

- هل أنت بحاجة إلى طعام ، لدي بعض السندويتشات ، تركتها لي زوجتي قبل أن تغادر المطار .

ﺔ 'ه لفافة من الورق متوسطة الحجم يتناولها حامد ويأخذ منها ساندوتشاً ويبدأ بازدراده بلا صوت .

عيون المارين بقربهما تمسحهما حتى النخاع ، تمر ثلاث فتيات .. إحداهن شقراء ذات وجه جميل ، خصرها النحيل فوق أرداف ممتلئة تزيد من أنوثتها ، يعلق حامد حين تقع عيناه عليها قائلاً :

- لقد أفقدني جمالها توازني .

لم يكترث إبراهيم بما قاله حامد فقد كان مشغولا بهمومه ، يحتله قلق عظيم في داخله ، يفكر متى ينتهي هذا الانتظار المتنامي ..؟

يأتي شرطي ويطلب منهما أن يلحقا به .. يتبعاه .. يتوقف أمام غرفة لانوافذ لها ، يشير إليهما بالدخول ، رائحة سجائر رخيصة تملأ المكان .. جدران الغرفة متسخة .. دهانها غير جيد ، شعر إبراهيم حين دخلها

بالاختناق طلب منهما شرطي برتبة رقيب أن يجلسا .. فاختار إبراهيم كنبة سوداء جلس عليها أما حامد فجلس على كرسي خشبي بجانب مكتب قديم كان يجلس إليه الرقيب وأمامه بعض جوازات السفر.

يغالب النعاس إبراهيم .. يفرك عينيه ليبعد عنها هذا النعاس الضاغط على جفنيه .. يعيد فركهما عدة مرات .. الرقيب صامت .. يحدجهما بنظرات تحمل فحوى الاتهام ، لاتستمر طويلاً يعود بعدها إلى تقليب جوازات السفر أمامه .. يستأذن إبراهيم من الرقيب أن يتمدد على الكنبة ، ينظر إليه ثم يومىء له برأسه بما يفيد السماح ..

تأخذ إبراهيم سنة من النوم وهو على الكنبة ، يحلم أثناء ذلك أنه ببلدته الجميلة قرب البحر ، بألوانه الزرقاء المتماوجة تحت أشعة الشمس .. الأمواج الجانبية تزحف بهدوء نحو الشاطىء - طيور جميلة الألوان ترقص على أغصان الأشجار الخضراء القريبة من الشاطىء .. أطفال يلعبون بأكوام الرمل المبلولة .. والده يفترش بطانية قديمة .. ينظر إلى البحر .. يتأمل أبناءه بعينيه .. تستقر عيناه على إبراهيم .. نظرته عميقة هذه المرة .. لم يعرف إبراهيم تفسيراً لها .. كانت ممزوجة برائحة البحر الممتد بعيداً نحو المجهول، بقية إخوته يفترشون رمال الشاطىء ، والده يتابع نظراته .. يستقرىء أيام العمر في رحلته القهرية.

***

صوت أقدام تقترب .. يدخل شرطي برتبة عريف .. يطلب من حامد أن يستعد للرحيل ، يستيقظ إبراهيم على صوت الشرطي .. عيناه حمراوتان ، لم يكن نومه كافياً والمكان غير مريح ، يلتفت نحو حامد ..

كان واقفاً يحمل حقيبته .. تلاقت عيونهما .. يشع منها بريق الفراق المخيف ، يتقدم حامد من إبراهيم يقبله قبلة الوداع .. يأتي صوت العريف حاثا حامد على الإسراع لأن موعد طائرة بلغراد يقترب ، عرف إبراهيم حينها أنه لم يُسمح لحامد بالدخول .. كتم زفرة قوية وحامد يتبع الشرطي ابتلع آلامه وخطوات حامد تبتعد عبر الدهليز أمام الغرفة ، شعر أنه يعرفه منذ زمن ، أحس أن شيئاً دافئاً ينسحب من داخله .. وبرودة الوداع تسحب معها حزن ثقيل إلى أعماقه .

***

يعود إبراهيم إلى مكانه على الكنبة السوداء .. دمعة حائرة بين جفونه ، الرقيب يعبث بجوازات السفر ، يفتح أحدها .. يطيل النظر إليه .. يلتفت إلى إبراهيم الذي كان يتابعه .. شعر أن موعد رحيله يقترب .. دق قلبه بسرعة حين تذكر ابنته الصغيرة وهي تنظر إليه قبل أن تفارقه .. في عينيها دهشة .. لم تستوعب الصغيرة مايجري أمامها .. على رأسها تتراقص عقدة حمراء كان قد ربطها بيده قبل السفر - عيناها مفتوحتان يملأهما فضول طفولي بريء تلوح بيدها الصغيرة وهي تجلس في عربتها.

وصوتها يأتيه واضحاً من بين ضجيج الموجودين .. بابا .. بابا .. كان ينظر إليها بعينين فيهما حزن الرحيل وهي تبتعد مع زوجته وابنه باتجاه بوابة المطار الكبير .. تذكر كل ذلك وهو مازال ينظر إلى يد الرقيب وهي تحمل جواز سفره .. تنهد وهو على نفس الكنبة السوداء تحمله الذكريات بعيدا .. يتابع معها رحلته مع الحياة والبحر البعيد بانتظار الرحيل القريب

الصفحة

أغباش الدجى ، ونسمات ماقبل الفجر تمسح وجوه الفلاحين وهم يسيرون إلى حقولهم في الأماكن البعيدة .. يواصلون سعيهم في مناكب الأرض البعيدة عن القرية الكبيرة بحثا عن أرزاقهم بعد فك الحصار عنهم.

كنت أسير خلف والدتي التي حملت المسؤولية بعد وفاة والدي في إحدى المعارك مع المحتل ، كانت شابة تتمتع ببعض الجمال الواهن المرسوم على وجهها وغلالة حزن تغشاه ، كنت في الثانية عشرة من عمرى ، وكنت أشعر ببعض التبرم وأنا أتبعها في هذا الوقت المبكر ، قبل بزوغ الشمس إلى حقلنا الصغير.. والنعاس يأسر جفوني الحذرة .. كنت أحسد زميلي تيسير وأنا أتخيله يغط في نومه في مثل هذه الساعة - فلم يكن بحاجة إلى النهوض المبكر ، لأن والده موجود ويعمل بإحدي الشركات ويحصل على راتب معقول . كثيرا ماكان يشمت بي لأنني يتيم وأمي تعمل ، فاتركه بعد أن أتشاجر معه وابتعد بنفس كسيرة لاتخلو من عدم الرضا ..

أتذكر أمي وهي تمسح عرقها بعد أن تحصد الخضراوات وتجمعها في حزم صغيرة لنبيعها في ناحية من السوق اعتدنا أن نجلس فيها ، وبعد أن نبيع مالدينا ، كانت تنظر إلى السماء بعينين تغمرهما الدموع تشكر الله ، تسأله أن يفرجها علينا ، ويمنحها القدرة على الاستمرار .

في صباح يوم كئيب جاءت زمرة من جنود الاحتلال تطلق الرصاص من بنادقها ، فزع الجميع فتركوا أعمالهم في الحقول وتفرقوا في عرائر

الأودية وأهضام الغيطان ، لم تستطع والدتي الهرب ، تيبست ساقاها ، طلبت مني أن أجري وأبتعد .. ترددت والخوف يملأ صدري .. لكنها ألحت، ابتعدت قليلاً .. وقلبي يرتجف .. لم أستطع أن أواصل الجري .. توقفت خلف شجرة صبار .. كنت قلقا على والدتي ، لم يلمحني أحد من الجنود لأن حجمي صغير.

نظرت إلى أمي فوجدتها في مكانها بيدها فأس كبيرة ، اقترب منها أحد الجنود ، شعرت بالاختناق وبأن أنفاسي ستتوقف .. كنت أرقب ماذا سيحدث ؟ حاولت أن أعود إلى أمي حين رأيتها ترفع الفأس لتضربه .. لكنه عاجلها بصفعة قوية أوقعتها على الأرض ثم لكزها بكعب بندقيته ، خفت وارتجفت شفتاي .. سمعت بعض الطلقات النارية ، ازداد فزعي على والدتي وبدأت قدماي تضرب الأرض بقوة والجنود يبتعدون لمطاردة الفلاحين .. تقدمت بحذر نحو أمي وأنا أشعر بالمرارة وهي مازالت على الأرض ، أحسست أن ذلك الجندي قد اغتصبني حين لطمها ، ودارت بي سنوات عمري وفقدت شعوري بالوجود – لم أدر كم مر من الوقت وأنا أتقدم نحوها ، خلت أنه الدهر ..

حين وصلت مكان والدتي وهي مطروحة على الأرض لاتتحرك ، جثمت بجانبها أتحسسها ، كانت تتنفس ببطء .. شعرت بالأمان .. مسحت العرق الغزير عن وجهها المعفر بتراب أرضنا ، كانت تئن بصوت خفيض ، عاودت مسح وجهها بكف يدي ، فتحت عينيها ، دق قلبي سريعا ، ساعدتها لكي تستطيع الجلوس وأنا أُقبل رأسها واتفقدها بيديْ ، حمدت الله على سلامتها ، اتكأت على جسدي النحيل ونهضت ، بدأت تنفض

التـراب عن ثوبهـا الريفي الأسـود المطرز بـخطين أزرقين منسـدلين من أعلى الصدر إلى أسفل - كعادة أهل قريتنا - كانت تتمتم ببعض الآيات.. كنت أرنو إليـهـا بصـمت ، طلبت مني أن أضع الفـأس الكبـيـرة في مكانه المعهـود تحت شجـرة الزيتـون .. بـدأنا سيـرنا بعد ذلك إلى البـيـت ، كانت تمسك يدي وهي تجـر نفـسهـا .. تنظر ناحـيتي مـرة وتنظر إلى الزروع التي حطمتـها أقدام الجنود مـرة أخرى .. كنت أسمع تنهـدها وهي تقبض على يدي الصغيرة ثم قالت :

- كنت خائفة عليك..

يقـترب الليل ويرجع بعض الـفلاحين الذين طاردهم الجنود ، تجـمعـوا عند مـخـتار القـرية وأخـبروه بمـا حدث ، لم يتكـلم وتكشيـرة ذات مـعنى ارتسمت على محـياه .. كنت أقف عند باب الغرفة الواسعة التي يـسمونها الديوان ، والرجـال يتحـلقون المخـتار ويتـكلمون مـعـه ، اندفعت نحـوهـم وخاطبت المختار بصوت مرتفع :

- لقد ضربوا أمي ..

سرت همهمة بين الجميع .. أشار المختار لي أن أقترب وأخذ يربت على كتفي بيده الضخمة وهو يقول :

- لعنهم الله.

تفرق الرجال حين سمعوا صـوت مجنزرة تقترب .. ركضت إلى البيت - طلبت من والدتي أن تقفل الباب بسرعة وقلت لها أنني سأعود بعد قليل فلا تقلق على .. خرجت وكمنت خلف سور قديم لأحد المساجد الأثرية.. لمحت بعض الأفراد في الجوار ، طلب مني أحـدهم أن أخفض رأسي حتى

لايراني الجنود والمجنزرة تقترب ، تبينت على ضوء النجوم الباهت بعض الجنود فوقها .. الطريق أمامهم خال .. يترنمون بأغنيات غريبة بلكنتهم الخنفاء .. قفزات صورة أمي أمامي والجندي يلطمها - حبست أنفاسي والأرض تهتز تحت أقدامي ، تيقنت أن المجنزرة تمر أمام المكان الذي أقف فيه ، وبلا تفكير تناولت بعض الحجارة وبدأت أرميها على المجنزرة وهي تبتعد ، ولدهشتي شاركني الرجال القريبون مني بقذف حجارتهم عليها .. توقفت المجنزرة ونزل منها بعض الجنود - أمطرونا بالرصاص ، فلذنا بالهرب في اتجاهات مختلفة بين البيوت في قريتنا الكبيرة .. كنت أحتضن فرحتي الصغيرة وأنا أطرق باب بيتنا .. استقبلتني أمي والقلق بادياً على وجهها الوضيء المجلل بالطرحة البيضاء .. وصوت الرشاشات والبنادق يصم الآذان .. احتضنتها ثم قبّلت يدها .. أخبرتها بما حدث .. نظرت إلى.. رأيت نظرة ارتياح تشع من عينيها ثم ضمتني إليها.. شعرت بدفء حنانها وأنا مازلت أحمل فرحتي .

لم تعد أمي تذهب إلى الحقل في الصباح الباكر كعادتها قبل هجوم الجنود على المزارع والحقول ، واكتفت ببعض ساعات قليلة ترعى فيها خضراوات حقلنا لاحظت عليها بعض السرحان والشرود .

تثاقلت الهموم عليها فزاد خوفى ، أن يصيبها مكروه في حالتها هذه ، قررت أن لاأبتعد عنها كثيراً بعد أن كثف العدو من دورياته ..

في سوق القرية جلست والدتي في مكانها المعهود وأنا بجانبها ، أمامنا بعض الخضراوات القليلة ، بعد تزايد الحصار وقلة المحصول .

بعض الجنود يشترون من فلاحة بعض الزنابق والأزهار . تلمحهم أمي،

تقف .. أنفاسها متلاحقة ، خيل لي أنني أسمع دقات قلبها .. تلتقط محشة الخضار .. سمعتها تقول وكأنها تحدث نفسها :

- إنه هو ..

لم أفهم شيئاً .. طلبت مني أن أبقى ، واندفعت مسرعة نحو الجنود الواقفين قرب بائعة الزهور ، اعترتني الدهشة وهي تقترب من أحدهم وتفاجئه بطعنة بالمحشة تبعتها طعنات أخري .. يسقط على الأرض .. تحاول الفرار .. يلحقونها .. يمسكون بها .. تركت مكاني وركضت نحوها .. وهم يضربونها ويركلونها .. لم تصرخ .. اقتربت منها وتعلقت بثوبها .. أبعدني الجنود بعنف ، لم يدركوا أنها أمي .. عدت مرة أخرى ، فألقوني في الهواء سقطت وارتطم جسدي الصغير بالأرض . لم أستطع بعد ذلك النهوض ، فقد دخل التراب أنفي وفمي شممته وتذوقته واكتشفت مبكراً أن للأرض طعم مختلف يجعلني أكثر التصاقاً بها .. لم أمنع نفسي من البكاء وأمي تنظر ناحيتي والجنود يجرونها نحو سيارتهم العسكرية الكبيرة، بكيت بحرقة .. وصرخة مكتومة تسكن صدري .. وبعينين تلتصق بهما الدموع المخلوطة بالتراب تابعت أمي وهي تجلس داخل السيارة وابتسامة حزينة فوق شفتيها ومسحة من الرضا تعلو محياها وقلق عميق في عينيها .. لم أعرف حينها سر ذلك القلق؟ وأنا أفترش التراب . لاأعرف ماذا حدث بعد ذهاب أمي؟ كل ماشعرت به ، هو أنني أغوص في رحم الأرض - وصوت سيارة إسعاف تقترب وأصوات من بعيد تتوعد وتتواعد ■

الأهرام ٢٤/ ٧/ ١٩٩٨

صدى الحلم الضائع

نظر إلى نفسه في المرآة القديمة المشروخة المعلقة على الجدار في صالة البيت الضيقة . شعر بغثيان يزحف من أمعائه إلى أعلى معدته .. ارتسمت امتعاضة على وجهه ، وكاد أن يبصق على المرآة..

تنهد وفكر في رحلة الضياع التي يواصلها مابين مولده وبين نهايته المحتومة التي لايعرف متى سيصل إليها ، فعلم ذلك عند الله جلت قدرته ، لم يحسن اختيار طريقه في الحياة واكتفى بوحدته ، فازداد ضياعه وأصبحت الأوهام حقائق تثير في داخله التعجب وأحياناً الدهشة ...

حزن عميق في قاع نفسه يتفجر عشقاً للحب الأول . تتأرجح سفينة عمره مع أمواج الحياة العالية فيشعر أنه يغرق في لجتها بعيداً عن صخب الحاضر المقيت . تكبر أحزانه وأوجاعه وتثير في نفسه لذة خفية لاتمت إلى ذاته الحسية الممقوتة .. لذة أسطورية تخرج من وجه عذراء .. يسير نحوها.. تنقله وذكرياته بعيداً هناك إلى مستقبل مجهول ، حينها ترتاح أعماقه قليلاً فتنساب دموعه حين تختلج جفونه ويعيش عالمه السراب .. يغلق عينيه ويشعر أنه على وشك السقوط لايجرؤ على النظر إلى ذاته .. يجلس يلوك الهدوء الذي بدأ يتسلل إلى داخله .. ظن أن قلبه سيتوقف ، وضع يده بلا قصد على صدره فشعر باهتزازه بين ضلوعه وكأنه يقاوم ذلك الإحساس بالهزيمة داخله لعدم الوصول إلى مايشتهي .. لم يلتفت إلى تلك البروق الوامضة من حوله فقد ماتت فيه الأماني قبل أن تولد ..

لكن تقوقعه داخل نفسه ، لم يمنع الآخرين من النظر إليه ببعض الشفقة وأحياناً باستهزاء يقترب من الازدراء ، وظن البعض أن أرواحاً شريرة تسكنه .

كان يعلم رأي الآخرين فيه ، حين يقرأ ما في عيونهم .. عندما يقابلهم بالصدفة ،كثيراً ماكان يشعر بالأسف لأنهم لم يفهموه ولن يفهموه لأنهم لم يحاولوا ذلك .. لوجود تلك المسافة القائمة بينه وبينهم .

يجر ساقيه المتعبتين ليغلق باب منزله الذي يبقى دوماً مفتوحاً رغم تأكده أنه قد أغلقه .. يجلس في غرفته وحوله بعض الكتب بلا ترتيب .. ينظر إليها .. يحاول أن يلتقط أحدها لكنه يتراجع حين يسمع ذلك النحيب الخافت الآتي من الحجرة المجاورة لبيته القديم .. الذي يتكرر كل ليلة ، لم يحاول أن يكتشف حقيقة مايجري داخلها .. لأن الفضول نحو الآخرين قد مات داخله ، لما جلب له من المتاعب في سابق أيامه .

يخرج كل صباح لشراء الجريدة وهو يرتدي معطفاً رمادياً لايخلعه عن جسده صيفاً ولاشتاءاً حتى أصبح جزءاً من شخصيته التي عرفها كل القاطنين في بلدته " تل الزعرور " ذات البيوت البسيطة التي تقع أسفل التل الرملي الذي يعلوه بعض الشجيرات الشوكية والصبار.

كان يشتري الجريدة لكي يطالع صفحة الوفيات فيها .. فذلك يجلب له بعض الراحة . وكان يظن أن اسمه سيظهر فيها رغم أنه على قيد الحياة لم يعبأ بالمارين بجواره ولابنظرات الاستغراب التي يلقونها عليه حين يصطدمون به دون أن يحاول أن يرفع عينيه إليهم فقد كان يكتفي باختلاس النظر إلى أرجلهم وهم يواصلون السير بعد ذلك .

يحاول باستمرار الابتعاد عن مـشاكل الآخرين .. إلا أنهم دوماً يتبعونه في حوار مبتور .. لأنه يلوذ بالصمت .. فما عاد يقلقه شيء إلا ذلك البعيد القريب .. وحين يحاول أن يعود إليه يشعر أنه فارس بلاجواد لايمتلك ذلك الخيار .. لأن كل الخيارات تساوت لديه منذ أن أحيل إلى المعاش ..

يسيـر ورأسه مطرقة إلى الأرض ينظر إلى مـوضع قدميـه .. يبحث عن مكان لمصيره المحتوم .. حتى المقبرة القريبة من بيته لم تكن تثير في نفسه إلا رهبة الموت وتسـاؤلاً عمـا تخفيـه تلك القبور من مـآس مدفـونة بأسرارها لايعـرفها إلا خـالق الكون وحـده .. لم يهتم بالأخـبار التي تنقلـها أجـهزة التلفاز أوالراديو .. لأنه يعـتبرها ملفقة حـتى أخبار الكوارث اعتبـرها عقاباً أنزله الله على البشر حين نسوا في لحظة أنهم من تراب .. يواصل السير في الطريق الرئيـسي داخل بلدته "تل الزعـرور" .. يفتح ذراعـيه بعـد أن وضع الجريدة في جيب مـعطفه الداخلي ، وكأنه يحتـضن الهواء الذي بدأ يحرك أغصان الأشجار المزروعة على جانبي الطريق .

قطرات من المطر بدأت تنزل .. لم يسـرع كما فعل الآخـرون وفضل أن يبقى تحتهـا ، لأن المطر برأيه يجرف كل شيء ويغسل شرور البشـر ويلقيها بعيداً فـي البحر ، لتعـود مرة أخرى أكثر شـراسة في نفوسهم .. فـيتلذذون بارتكاب الذنوب غافلين عن ذكر الله .. تخيل أنه بلا عينين وأنه يسير على نورفي داخله .. فقـد الإحساس بالآخـرين حينما اشـتد نزول المطر. فشـعر بوحـدة قـاتلة رغم أنه وسط المارة وهم يسـرعـون خوفـاً من المطر المنـهمـر بغزارة، ارتسمت ابتســامة باهتة تجعدت على صفحـة وجهه المبلل بماء المطر وشفتاه تحتضنان تلك القطرات بارتعاشة حب قديم..

ينظر أمامه .. سيل يكنس الطريق يجرف معه كل شيء يقابله .. وهو يسير على الرصيف ، شعر أن همومه تغادر جسده وتلحق بركب ذلك السيل فوق الطريق ، تملكه إحساس بالحزن ظهر على تضاريس وجهه القاسية الحادة المجردة من نضارة الحياة ، حين تذكر أن حياته ركض وراء سراب ذلك العشق الذي لاينتهي حتى في ظلام النيل .. يشاركه وحدته .. يسترجع مقولات باختين عن الآخر ، الذي يفلت دوماً من حالة الحصار .. ينظر إلى نفسه ، يخرج نظارته يعرضها للمطر بعد أن خفت غزارته .. والطريق مقفرة .. يسير وحده .. أصوات أقدامه تخب في الماء ، بعد أن أصبح الطريق أكثر نظافة .. شقشقة عصفور تجذب انتباهه .. ينظر إليه وهو ينفض الماء عن جناحيه وبجانبه وليفته على غصن قريب .. تُطل الشمس بعد أن زاحمت بعض الغيوم المتبقية .. مازال العصفوران واقفان يغردان وحين سقطت عليهما أشعتها الجسورة طارا بعيداً في الفضاء ، تحسر على حاله وهو يراقب العصفورين .. إنسان مربوط بالمكان لايقدر على التحليق بعيداً بحرية العصافير في رحلتها المفتوحة دوماً .. وتساءل هل تبقى العصافير بعيداً عن أعشاش ميلادها ؟. أم تعود يدفعها ذلك الحنين الفطري إلى عشها الأول.. !!

شعر بالأسى لذلك العشق المبتور بين جوانحه حين اكتشف عجزه ، فهو لايقدر على التحليق بعيداً كالطيور ، انداحت في أعماقه لحظة الحبور التي تولدت عندما شاهد العصفورين على الشجرة ، رجع إلى واقعه المبتل ، نظر إلى الطريق .. شعر باجتياح فقدان الوعي بالمكان وبحاجته إلى أطلس جديد يدله ويسترشد به ليعرف أين يستطيع أن يدوس بقدميه بأمان دون

خوف من الآخـرين .. شعر بالشفـقة على نفسه لكن دون شـعور بالرثاء .. لاذ بالصمت .. سيارة مسرعـة تمر بجانبه ، زادته بلة من الماء المتطاير بغزارة من عجـلاتها حين سارت فـوق بركة ماء كانت بجـانبه .. إلا أن تعبـيرات وجـهه الصـارمة لـم تتغـير .. لملم مـا تبـقى له من طاقـة .. واندفع بالسير متثاقلاً، دخل أحد المقاهي المنتشرة على جانبي الطريق .. لم يرحب به عامل المقهى .. وقف أمامه طلب منه أن يعطيه مـشروباً بارداً .. استغرب النادل - فالجو بارد - يحتاج إلى مشروب ساخن ..

لكن " درويش " كـرر الطلب فقـد كان يشـعر بلهـيب العطش داخله.. يأتي النادل بزجـاجة " كوكـاكولا" يتـجرعهـا - دفعه واحـدة .. يتجـشأ .. التفـت إليه النادل باسـتغراب ودهشـة خالطهـما بعض الخـوف .. تمنى في نفسـه أن يغـادر هذا القادم الغـريب المقهى .. إلا أن " درويش " تمدد قـرب النافـذة وسط حيـرة عامل المقـهى الذي اقـترب وطلب منه أن يتـرك المكان ويبحث عـن فندق أومكان آخر يستـطيع أن ينام فيه ، نظـر إليه " درويش " بعينين ذابلتين والنعـاس يكاد يقفلهما ، لم يكتـرث بما قاله العامل وراح في نوم مفـاجيء عمـيق .. تهاجـمه الكوابيـس : طيور جارحـة تنهش جـسده المتآكل .. لايتألـم .. يشـعر بارتياح .. ومناقيـر الطير المعقوفة تهـاجم جسده أسـفل صـدره يشعـر بلذة غـريبة وهي تـعري مـا تبقى مـن عظامه وتلتـهم أجزاءه الطرية .

وقبل أن تـأتي عليهـا تستكين فـجأة وتتوقـف .. تميل رؤوسهـا .. تفرد أجنحتها عليه بلا حراك .. يكتشف أن نصفه الأسفل عارياً من كل شيء .. وعظامه بارزة بلونها الكالح .

لم يتحرك .. فقد لاحظ أن شعراً كثيفاً بدأ ينمو على عظامه العارية من كل شيء .. يستغرب كيف نبت هذا الشعر يحاول أن يلمسه .. يتألم فقد كان شائكاً .. شعر بجوع يكاد يقتله .. تحسس معدته .. لم يجدها .. فقد أكلتها الطيور التي تحب طري اللحم .. تمنى لو أن والدته تراه على حالته هذه لكي تلفه كما كانت تفعل بإخوته الصغار ، حتى لايراه الغير ضعيفاً هزيلاً ..

نادى عليها بأعلى صوته ، فتح عينيه ، وجد النادل واقفاً بالقرب منه ، ملابسه المبتلة مازالت على جسده .. حاول أن ينهض لم يستطع- شعر أن أطرافه قد يبست من البرد .. يدنو النادل منه ويحاول مساعدته لكي ينهض.. يقوم بصعوبة ويجلس على كرسي خشبي كان قد أحضره النادل معه حين سمع صراخه وهو نائم .. نظر " درويش " إليه وتذكر ما كتبه باختين عن الآخر .. مد يده في جيبه وأخرج مافيها من نقود .. أعطاها له كلها .. غادر "درويش" المقهى وهو يثني على النادل الذي ساعده وأوصله إلى بداية الطريق – إلى منزله ، وفي رأسه فكرة كانت قد داعبته في السابق لكنها الآن أكثر إلحاحاً .. سيقوم بزيارة أخته في القرية المجاورة. ليستفسرعن ذلك الآخر .. الغائب .. الحاضر .. وهل مازالت عرائس الفكر تداعبه وتناجيه ؟.. ■

الفهرس

المؤلف

- **ممدوح عبد يعقوب القديرى**
- مواليد ١٩٤٤ ، يافا - فلسطين.
- يعمل بتدريس اللغة الانجليزية.
- صدر له :
  - أدب الطفل العربي (دراسة) مركز الحضارة العربية ، ١٩٩٩
  - الهروب مع الوطن (قصص قصيرة) مركز الحضارة العربية ، ١٩٩٩
- تحت الطبع :
  - فوق لهيب الشموع (رواية).

من قائمة الإصدارات الأدبية

رواية .. قصة

ليلة العشق والدم	إبراهيم عبد المجيد
حمدان طليقاً	أحمد عمر شاهين
تباريح الوقائع والجنون	إدوار الخراط
رقرقة الأحلام الملحية	إدوار الخراط
مخلوقات الأشواق الطائرة	إدوار الخراط
لا أحد يحبك	أماني فهمي
دنا فتدلى (من دفاتر التدوين ٢)	جمال الغيطاني
مطربة الغروب	جمال الغيطاني
دموع إيزيس	حسني لبيب
أحزان رجل لا يعرف البكاء	خالد غازي
الحب والتتار	خالد عمر بن ققه
أيام الفزع في الجزائر	خالد عمر بن ققه
يومية هروب	خيري عبد الجواد
مسالك الأحبة	خيري عبد الجواد
العاشق والمعشوق	خيري عبد الجواد
حرب أطاليا	خيري عبد الجواد
حرب بلاد نعم	خيري عبد الجواد
حكايات الديب رماح	خيري عبد الجواد
الطريق والعاصمة	رأفت سليم
في لهيب الشمس	رأفت سليم
اركبوا دراجاتكم	رجب سعد السيد
أنا كنده	كيروجا ترجمة : رزق أحمد
سيرة عزبة الجسر	سعد الدين حسن
شجرة الخلد	سعد القرش
شهقة	سعيد بكر
أيام هند	سيد الوكيل
الممنوع من السفر	شوقي عبد الحميد
الدميرة	د.عبد الرحيم صديق
جسد في ظل	عبد النبي فرج
الدور للزمالك والنصر للأهلي	عبد اللطيف زيدان
ليس هناك ما يبهج	عبده خال
لا أحـــــد	عبده خال
صعيدي صُح	د. عزة عزت
الشاعر والحرامي	عزت الحريري
في انتظار ما لا يتوقع	عصام الزهيري
إينارو	د. علي فهمي خشيم
تحولات الجحش الذهبي	لوكيوس أبوليوس ترجمة د علي فهمي خشيم
سراديب	عفاف السيد
الزجاج المكسور	د . غبريال وهبه
ينابيع الحزن والمسرة	فتحي سلامة
يوميات عابر سبيل	فيصل سليم التلاوي
وتر مشدود	قاسم مسعد عليوة
خبرات أنثوية	قاسم مسعد عليوة
حب وطلال	كوثر عبد الدايم
ترانزيت	ليلى الشربيني
مشوار	ليلى الشربيني
الرحيل	ليلى الشربيني
رجال عرفتهم	ليلى الشربيني
الحلم	ليلى الشربيني
النغم	ليلى الشربيني
الخرابة 2000	محمد الشرقاوي
كوميديا الإنسجام	محمد بركة
أشياء لا تموت	محمد صفوت
الحاج	محمد عبد السلام العمري
بعد صلاة الجمعة	محمد عبد السلام العمري
الخروج إلى النبع	محمد قطب
رشفات من قهوتي الساخنة	محمد محي الدين
الحبيب المجنون	د. محمود دهموش
فندق بدون نجوم	د. محمود دهموش
الهروب مع الوطن	ممدوح القديري
نسيج الأسماء	منتصر القفاش
ثلاث حقائب للسفر	منى برنس
حافة الفردوس	نبيل عبد الحميد
ديسمبر الدافئ	هدى جاد
خلف النهاية بقليل	وحيد الطويلة
فرد حمام	يوسف فاخوري

شعر ..

أول الرؤيا — إبراهيم زولي
رؤيدا بالخاء الأرض — إبراهيم زولي
قصائد حب من العراق — البياتي وآخرون
بدلاً من الصمت — درويش الأسيوطي
من فصول الزمن الرديء — درويش الأسيوطي
تماماً إلى حوار حتة يوسسكو — رشيد الغمري
كأنها نهاية الأرض — رفعت سلام
الألوان ترتعد بشراهة — شريف الشافعي
صلاة المودع — صبري السيد
دبـــا تـادبـــا — طارق الزياد
تلف — ظبية خميس
البحر . النجوم . العشب في كف واحدة — ظبية خميس
كتاب الأمكنة والتواريخ — عبد العزيز موافي
حواديت لمدى — عصام خميس
سيرة الماء — د . علاء عبد الهادي
راتب الألمة — علوان مهدي الجيلاني
إضاءة في جبهة الليل — علي فريد
نصف حلم فقط — عماد عبد المحسن
عطر النعم الأخضر — عمر غراب
سراب القمر — فاروق خلف
إشارات ضبط المكان — فاروق خلف
أوراق مسافر — فيصل سليم التلاوي
إذهب قبل أن أبكي — د . لطيفة صالح
الغربة والعشق — مجدي رياض
مشاعر همجية — محسن عامر
غربة الصبح — محمد الفارس
وَنَس — محمد الحسيني
ليالي العنقاء — محمد محسن
العصفور المراوغ يبيع أطراف النهر — نادر ناشد
هذه الروح لي — نادر ناشد

مسرح ..

هذه الليلة الطويلة — د.أحمدصدقي الدجاني
اللعبة الأبدية (مسرحية سعيدة) — محمد الفارس
ملكة القرود — محمود عبدالحافظ

دراسات ..

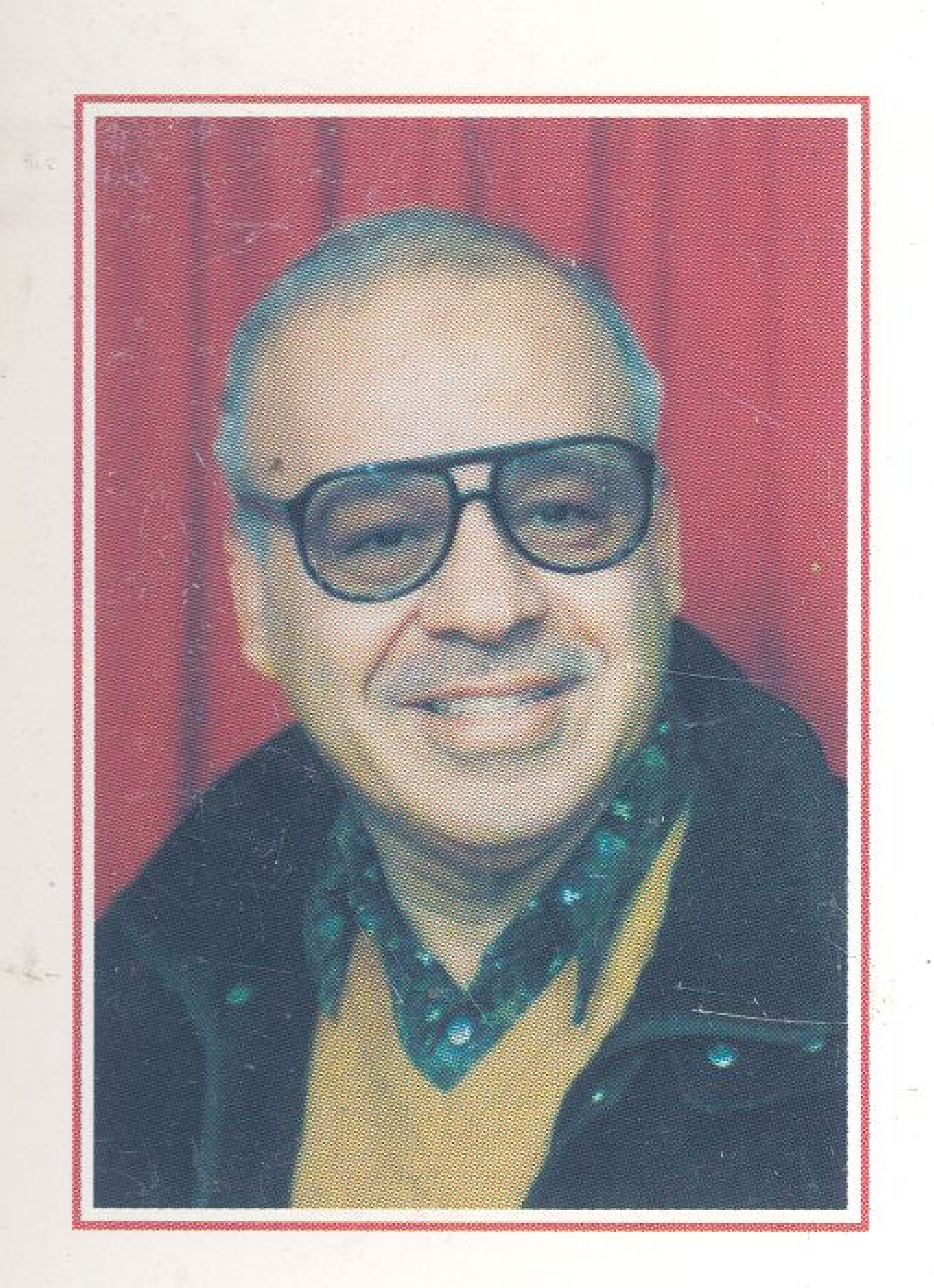
هاجس الكتابة — د . أحمد إبراهيم الفقيه
تحديات عصر جديد — د . أحمد إبراهيم الفقيه
حصاد الذاكرة — د . أحمد إبراهيم الفقيه
الوقوف على الأمية عند عرب الجاهلية — أحمد الأحمدين
قراءة المعاني في بحر التحولات — أحمد عزت سليم
ضد هدم التاريخ وموت الكتابة — أحمد عزت سليم
اللغة والشكل — أمجد ريان
المثقفون العرب والتراث — جورج طرابيشي
ثقافة البادية — حاتم عبد الهادي
المثل الشعبي بين ليبيا وفلسطين — خليل إبراهيم حسونة
أدب الشباب في ليبيا — خليل إبراهيم حسونة
العنصرية والإرهاب في الأدب الصهيوني — خليل إبراهيم حسونة
أساطير الفرعونية — سليمان الحكيم
مصر الفرعونية — سليمان الحكيم
البعد الغائب نظرات في القصة والرواية — سمير عبد الفتاح
رواد الأدب العربي في السعودية — شعيب عبد الفتاح
الكتابة المشروع — شوقي عبد الحميد
رحلة الكلمات — د . علي فهمي خشيم
بحثاً عن فرعون العربي — د . علي فهمي خشيم
أعلام من الأدب العالمي — علي عبد الفتاح
هيمنجواي حياته وأعماله الأدبية — د . غبريال وهبة
زمن الرواية صوت اللحظة الصاخبة — مجدي إبراهيم
في المرجعية الاجتماعية للفكر والإبداع — محمد الطيب
الجات والتبعية الثقافية — د. مصطفى عبد الغني
أدب الطفل العربي بين الواقع والمستقبل — ممدوح القديري
الرواية العربية . رسوم وقراءات — نبيل سليمان

بالإضافة إلى : كتب متنوعة : سياسية – قومية – دينية – معارف عامة – تراث – أطفال .
خدمات إعلامية وثقافية (اشتراكات) : ملخصات الكتب – وثائق – النشرة الدولية – دراسات عربية – معلومات – ملفات صحفية موثقة.

الآراء الواردة في الإصدارات لا تعبر بالضرورة عن آراء يتبناها المركز



٤ ش العلمين . عمارات الأوقاف . ميدان الكيت كات
تليفاكس : ٣٤٤٨٣٦٨



الهروب مع الوطن

مشى متثاقلاً وأقدامه تخب فى برك الماء الصغيرة على درب اختفت معالمه .. توهم وسطه أشباحاً مرعبة تحملق فيه بسخرية واستهتار - تتركه كشيطان غريب يحمل معه شرور العالم تحت معطفه المشحون بالطين وماء المطر.

من قصة

الحنين والأفق البعيد

بجريدة الأهرام فى ٦ - ٢ - ١٩٩٨م

حزن عميق فى قاع نفسه يتفجر عشقاً للحب الأول ..

تتأرجح سفينة عمره مع أمواج الحياة العالية فيشعر أنه يغرق فى لجتها بعيداً عن صخب الحاضر المقيت - تكبر أحزانه وأوجاعه وتثير فى نفسه لذة خفية لاتمت إلى ذاته الحسية الممقوتة - لذة أسطورية تخرج من وجه عذراء .

من قصة

صدى الحلم الضائع.

